الفصل الأول

الأوضاع السياسية في اليمن
وأهميتها في المنطقة

- **المبحث الأول: الأوضاع السياسية في اليمن خلال القرنين (السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين).**

أولاً: القوى السياسية في اليمن قبيل الحكم الأيوبي.

ثانيًا: الدولة الأيوبية.

ثالثًا: الدولة الرسولية.

- **المبحث الثاني: اليمن وأهميتها السياسية والاقتصادية في المنطقة.**

أولاً: أهمية اليمن السياسية في المنطقة.

أ - أهمية موقع اليمن وأثر ذلك في علاقتها بدول الجوار.

ب - اليمن ودورها في الملاحة البحرية.

ج - اليمن والحجاز.

ثانيًا: أهمية اليمن الاقتصادية.

أ - الزراعة.

ب - الصناعة والتعدين.

ج - التجارة.

المبحث الأول

القوى السياسية في اليمن خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

منذ أن أخذ سلطان الخلافة العباسية على الأقاليم في الانكماش تحت وطأة ضعف السلطة المركزية في بغداد، وتزايد حدة الحركات المناهضة لها في الأقاليم[١]؛ تناوب على حكم اليمن عدد من الدول والأسر الحاكمة في آن واحد، منها دول قامت على أسس فكرية ومذهبية مناوئة للعباسيين ومخالفة لهم كالإمامة الزيدية التي قامت في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وتقلبت بها الأحوال بين توسع وانكماش إلى العصر الذي سنتحدث عنه، وهناك دعاة الإسماعيلية في اليمن الذين نجحوا في تأسيس دولة لهم مع نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الهجريين، ولكنها سرعان ما انهارت أمام تحالف القوى الأخرى، فكانت ضربة قاصمة للدعوة الإسماعيلية في اليمن جعلتهم يواصلون الدعوة سرًا لأكثر من قرن من الزمن حتى تصبح الظروف مناسبة لإقامة دولتهم.

ومن جهة أخرى كانت هناك دول قامت على أسس قبلية مثل الدولة اليعفرية والشراحيين وآل الكرندي، التي كان الصراع القبلي وتنافس زعماء القبائل فيما بينهم سببًا في إضعافها والقضاء عليها، على الرغم من اعترافها الاسمي بالولاء للعباسيين وجهودها في التصدي لخطر القرامطة في اليمن[٢].

---

(١) تدخل الأتراك، انفصال بعض دويلات المغرب الإسلامي، الحركات المناهضة للخلافة العباسية في المشرق الإسلامي.

(٢) عمارة (نجم الدين عمارة بن علي الحكمي): المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها، تح: محمد بن علي الأكوع، المكتبة اليمنية للنشر =

كما قامت في اليمن دول تدين منذ نشأتها بالولاء للعباسيين كالزياديين والنجاحيين من بعدهم، وقد افتقرت تلك الدول إلى ظهير قبلي يساندهم فعوضوا عن ذلك بتجنيد العبيد من النوبيين والأحباش للذود عن ملكهم[١].

ونتيجةً لهذه الانقسامات السياسية وتأجيجها للفتن المذهبية دخلت اليمن في دوامة من الصراع السياسي والصدام العسكري، وهي صورة تعد انعكاسًا لما كانت تعيشه بلاد الإسلام في تلك الحقبة. وسنتناول فيما يأتي الأوضاع السياسية في اليمن خلال زمن هذه الدراسة القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

أولاً: القوى السياسية في اليمن قبيل الحكم الأيوبي:

١- الزيدية:

عاشت الإمامة الزيدية في اليمن ركودًا وضعفًا بعد وفاة مؤسسها الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين سنة (٢٩٨هـ/ ٩١٠م) وحكم أبنائه من بعده[٢]، وقد جاء ذلك نتيجةً لاستمرار التنافس بين الزيدية حول الإمامة،

= والتوزيع - صنعاء، ط١- ١٩٨٥م، ص ٦٥، ٧٥؛ الشجاع (عبدالرحمن عبدالواحد): تاريخ اليمن في الإسلام في القرون الأربعة الهجرية الأولى، مكتبة الإحسان - صنعاء، ط٥ - ٢٠٠٤م، ص١٦٤- ١٧٣.

(١) عمارة: المصدر السابق، ص٦٥، ٧٥.

(٢) الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، ولد بالرس من جبال المدينة سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٧م)، واشتغل بطلب العلم حتى صار متضلعًا في سائر العلوم والفنون فضلا عن رحلاته إلى العراق وطبرستان، قدم اليمن سنة (٢٨٠هـ / ٨٩٢م) بدعوة من قبائل منطقة صعدة ولكنه لم يلق استجابة فعالة فعاد إلى الرس، وفي سنة (٢٨٤هـ/ ٨٩٦م) عاد إلى اليمن حيث التفّت حوله القبائل وأسس دولة الزيدية في اليمن بعد =

مما جعلهم في حال من الضعف لم يستطيعوا معها التصدي لقوة الصليحيين - دعاة الفاطميين - الصاعدة، فحاول حمزة بن أبي هاشم[١] القيام محتسبًا من دون الإقدام على الدعوة لنفسه بالإمامة ولكنه قتل سنة (٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م)[٢].

وقد فشلت محاولات الزيدية تنظيم صفوفهم في مواجهة الصليحيين والقبائل الموالية لهم بسبب الصراع المستحكم بين الزيدية أنفسهم في ظل غياب إمام متفق عليه، إلى درجة أن أرسل أحد الزيدية الداعين لأنفسهم ببلاد الجبل والديلم والمعروف بالهاروني (ت٥٢٠هـ/ ١١٢٨م) إلى أحد أحفاد الهادي وهو الأمير المحسن بن أحمد بن المختار بن الناصر

= حروب كثيرة. انظر: الواسعي (عبدالواسع بن يحيى): تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، دار اليمن الكبرى - صنعاء، ط٢- ١٩٩٠م -١٩٩١م، ص١٨٥-١٨٦.

(١) حمزة بن أبي هاشم بن الحسن بن عبدالرحيم، من أحفاد القاسم بن إبراهيم الرسي، قدم مع والده من الحجاز سنة (٤١٨هـ/ ١٠٢٦م)، حيث دعا الإمام أبو هاشم لنفسه في حصن ناعط من بلاد حاشد، واستمرت محاولاته للاستيلاء على صنعاء إلى وفاته، ولم يكن ابنه حمزة مؤهلاً للإمامة، ولكنه على الرغم من ذلك قام بدور سياسي انتهى بهزيمته على يد الصليحيين ومقتله سنة (٤٥٨هـ/ ١٠٦٧م)، وعرف أبناؤه وأحفاده بالحمزات. انظر: العمري (حسين عبدالله): الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية - صنعاء، ط٢- ٢٠٠٢م، مج٢/ ص١١٩٢.

(٢) المحلي (حسام الدين حميد بن أحمد): الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، مخطوطة مصورة، توزيع السيد حسين السياني الحسني- صنعاء جوار جامع النهرين، ج٢/ ص١٣٦؛ الكبسي (محمد بن إسماعيل)، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، تح: خالد أبو زيد الأذرعي، مكتبة الجيل الجديد - صنعاء، ط١- ٢٠٠٥م، ص٦٨- ٧١؛ العرشي (القاضي حسين بن أحمد): بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، نشره: الأب أنستانس الكرملي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ط - ١٩٣٩م، ص٣٤-٣٦.

(ت٥١١هـ/ ١١١٧م) يعينه داعيًا له في اليمن، ولكن هذه المحاولة انتهت بمقتل الأمير المحسن على يد الحدادين بصعدة سنة (٥١١ هـ/ ١١١٧م)[١]. وفي سنة (٥٣١هـ/ ١١٣٦-١١٣٧م) قام أحد ذرية الهادي ويدعى علي بن زيد بن إبراهيم محتسبًا - على الرغم من قلة تحصيله العلمي - وانتهت محاولته بمقتله في شظب[٢] في العام نفسه[٣]، وسرعان ما دعا أحد أتباعه أحمد بن سليمان لنفسه، ودعا الناس إلى بيعته إمامًا سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)، وتلقب بالمتوكل على الله، ونظرًا لما يتمتع به من مؤهلات علمية وقيادية تابعه كثير من الناس، في وقت ضعفت فيه قوة الصليحيين وغيرهم من القوى المجاورة له، فأخذ يوسع من نفوذه ليشمل صعدة ومخاليفها ونجران والجوف والظاهر[٤]، وقد شن الإمام المتوكل حربًا على بني حاتم

(١) انظر: يحي بن الحسين (يحي بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي)، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تح: سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكاتب العربي - القاهرة، د.ط - ١٩٦٨م، ج١/ ص ٢٨٨؛ الكبسي: المصدر نفسه، ص٨٣-٨٤؛ الواسعي: المصدر السابق، ص١٩٢-١٩٣؛ علي محمد زيد: تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية - صنعاء، ط١- ١٩٩٧م، ص٤٢.

(٢) شظب: جبل فوق مدينة السودة غربي مدينة خمر من بلاد حاشد، تنسب إليها السودة فيقال (سودة شظب)، وهو جبل فيه مزارع وقرى؛ انظر: المقحفي (إبراهيم بن أحمد)،معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٢م، ج١/ ص٨٦٦.

(٣) يحي بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٢٩٤-٢٩٥؛ الكبسي: المصدر السابق، ص٨٤-٨٥؛ زيد: المرجع السابق، ص٤٢.

(٤) يحي بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٢٩٦؛ الكبسي: اللطائف، ص٨٦؛ الواسعي: فرجة الهموم، ص١٩٤. والظاهر: يقصد بها المنطقة الممتدة من غرب محافظة صعدة وتتصل جنوبًا بأطراف محافظة حجة؛ انظر: المقحفي، المرجع السابق، ج١/ ص٩٧١.

حتى انتزع منهم صنعاء[١]، كما استنجد به بنو نجاح في زبيد على علي بن مهدي ومن معه فنزل إلى تهامة سنة (٥٥٣هـ/ ١١٥٩م)، إلا أنه قرر الانسحاب أمام التفوق العسكري لعلي بن مهدي[٢].

وقد حفلت مدة إمامته بكثير من الأحداث، مثل حروبه المتكررة مع بني حاتم حول صنعاء، وحربه ضد المطرفية[٣]، وكذلك حروبه ضد منافسيه من الزيدية إلى أن وقع أسيرًا في أيديهم إلى أن سعى السلطان علي بن حاتم لفكاكه، فاعتزل الناس وعمي آخر عمره وتوفي سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٣م)[٤]، ولم يتول قيادة الزيدية من بعده إمام كفؤ وقوي نظرًا لانشغالهم بالصراع فيما بينهم في وقت قدم فيه الأيوبيون إلى اليمن، فسيطروا على معظم البلاد وشكلوا ضغطًا مباشرًا على الزيدية إلى سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) حين قام

(١) الخزرجي (شمس الدين أبو علي بن الحسن بن أبي بكر): العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط مصور، نشر وزارة الإعلام والثقافة - صنعاء، - ١٩٨١م، ص٧٤-٧٥؛ ابن الديبع (وجيه الدين عبدالرحمن بن علي): قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تح: محمد بن علي الأكوع، بساط للنشر- بيروت، ط٢- ١٩٨٨م، ص٢٠٨.

(٢) عمارة: المفيد، ص ١٨٨؛ ابن عبدالمجيد (تاج الدين عبدالباقي): بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تح: مصطفى حجازي، دار الكلمة - صنعاء، ط٢- ١٩٨٥م، ص٧٤.

(٣) المطرفية: فرقة تنسب إلى مطرف بن شهاب، كانوا من المخالفين للزيدية في كثير من الأمور، فمن ذلك أنهم بعد ما بايعوا الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة ظهرت منهم أقوال تخالف الزيدية لا سيما أقوالهم حول الإمام، فقاتلهم الإمام عبدالله بن حمزة متهمًا إياهم بالكفر والزندقة وذلك في عامي (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) و(٦١١هـ/ ١٢١٤م)؛ انظر: ابن دعثم (أبو فراس فاضل بن عباس): السيرة المنصورية، تح: عبدالمغني محمود عبدالعاطي، دار الفكر المعاصر- بيروت، ط١- ١٩٩٣م، ج٣/ ص٩٢٥-٩٦١؛ زيد: تيارات، ص١٩٠-١٩٢.

(٤) الخزرجي: العسجد، ص٨٢- ٨٣؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢١٦؛ الكبسي: المرجع السابق، ص٩٥.

الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة داعيًا لنفسه بالإمامة[١]، وهو من أبرز الأئمة الزيدية خلال تلك الحقبة من حيث اطلاعه وغزارة علمه وهمته العالية في السياسة والحرب، فضلا عن المؤلفات الكثيرة التي خلفها[٢].

ولكنه وعلى الرغم من الإجماع على كفاءته القيادية ومؤهلاته العلمية، فإنه لم يستطع التوسع بسبب قوة الأيوبيين في اليمن خلال حكم سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، الذي تعرض حكم الأيوبيين بعد وفاته لموجة من الفوضى بسبب تمرد الجند نتيجةً لسوء سياسة ولده المعز إسماعيل، الأمر الذي أتاح للإمام عبدالله بن حمزة فرصة التحرك مستعينًا بدعم القبائل التي بايعته ومن انضم إليه من جند المعز، فاستولى على كثير من المناطق ومنها صنعاء[٣]، وقد شكلت دعوته تهديدًا مباشرًا للوجود الأيوبي في اليمن، كما شن حربًا على المطرفية قتل فيها كثيرًا من علمائهم وشرد الباقين.

غير أن كفة الأيوبيين عادت للرجحان بعد مقتل المعز بزبيد سنة (٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م)، وتولي الأتابك سنقر إدارة دولة الناصر أيوب بن طغتكين، فعاد كثير من الجند المتمردين إلى صفوف الأيوبيين، الذين استعادوا صنعاء وكثيرًا من المناطق التابعة للإمام، الذي ظل يقاتل في عدة

(١) يحي بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٣٢٩-٣٣٠؛ الحداد (محمد يحيى): التاريخ العام لليمن، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤، مج٢/ ص٤٤١.

(٢) المحلي: الحدائق الوردية، ج٢/ ص١٤٠؛ الواسعي: المرجع السابق، ص١٩٧؛ الوجيه (عبدالسلام بن عباس): أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية - عمّان، ط١- ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٥٧٨-٥٨٥.

(٣) ابن دعثم: السيرة المنصورية، ج٢/ ص٢٢٢- ٢٢٤؛ الكبسي: اللطائف، ص١٠٦- ١١٠.

جبهات ضد الأيوبيين، والقبائل المعارضة له، والمنافسين له من الزيدية[١].

انتعشت آمال الإمام مرة ثانية بعد وفاة الأتابك سنقر سنة (٦٠٨هـ/ ١٢١٠م)، ثم مقتل الملك الناصر أيوب سنة (٦١١هـ/ ١٢١٤م) والفوضى التي تلت مقتله، غير أن حملة الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي غيرت موازين القوى فاضطر الإمام إلى التقهقر والانسحاب من صنعاء أمام قوات الأيوبيين، ولكن الأجل لم يمهله ليكمل ما بدأه إذ توفي في كوكبان سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)[٢].

وقد خلف الإمام المنصور عددًا من الأولاد، ولكن لم يبلغ أي منهم مرتبة الإمامة، فدعا الأمير عز الدين محمد بن المنصور لنفسه محتسبًا بعد أبيه، ولكن التنافس الذي تفاقم بين الأشراف بعد وفاة الإمام، وكذلك قوة الأيوبيين في اليمن ورجال دولتهم من بني رسول؛ جعلت من العسير على الأمير عز الدين مواصلة مسيرة والده إذ فشل في الاستيلاء على صنعاء، مما اضطره لعقد صلح مع المسعود الأيوبي[٣].

حظي أبناء المنصور وإخوته وأبناؤهم بمكانة ونفوذ كبيرين بين الزيدية، وعلى الرغم من عدم تمكنهم من الفوز بالإمامة لأنفسهم فإن رغبتهم في التمسك بذلك النفوذ الذي ورّثه لهم الإمام المنصور جعلهم يقفون موقفا معاديًا من كل من تسول له نفسه الدعوة لنفسه إمامًا ما لم يكن متفقًا معهم

(١) ابن دعثم: المصدر السابق، ج٣/ ص٩٢٥-٩٦١؛ زيد: تيارات، ص١٩٠- ١٩٢.
(٢) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٨١- ٨٣؛ الكبسي: المصدر السابق، ص١١٦- ١٢٢.
(٣) ابن عبدالمجيد: المصدر نفسه، ص٨٣؛ يحي بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٤٠٩.

ومراعيًا مصالحهم، فلما قام أحد ذرية الإمام الهادي ويدعى يحيى بن محسن بن محفوظ داعيًا لنفسه بالإمامة سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م) وتلقب بـ(المعتضد بالله)، شن الأشراف أبناء المنصور حربًا ضده لم تهدأ بموت عز الدين محمد بن المنصور سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م)[١]، فقد كان أخوه شمس الدين (المتوكل على الله) أشد على الإمام (المعتضد بالله) يحيى بن محسن من أخيه، ولما عرف الإمام المعتضد ضعف جانبه خلد إلى السكون واعتزل الناس إلى أن توفي سنة (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م)[٢].

عقد السلطان المنصور نور الدين عمر بن رسول مؤسس الدولة الرسولية صلحًا مع الأشراف في سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) حتى يتسنى له ترتيب شؤون دولته الجديدة، ولم يعكر صفو الصلح إلا محاولة الأمير تاج الدين محمد بن يحيى بن حمزة الاستيلاء على بعض الحصون التابعة للسلطان في سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م)، الأمرالذي أثار غضب السلطان المنصور، فشن عليهم هجومًا جعلهم يعيدون الحصون ويجددون الصلح معه[٣].

وفي سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) ظهرت دعوة الإمام أحمد بن الحسين بن القاسم بن عبدالله بن القاسم، وفي العام التالي قتل السلطان المنصور نور الدين عمر، وشغل ابنه المظفر بالحرب ضد أبناء عمومته وإخوته، والقضاء

(١) الخزرجي: العسجد، ص١٨٤- ١٨٥؛ الكبسي: المصدر السابق، ص١٢٥.
(٢) الواسعي: فرجة الهموم والحزن، ص١٩٨؛ الحداد: التاريخ العام، مج٢/ ص٤٤٦- ٤٤٧.
(٣) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٨٥؛ الخزرجي (أبو الحسن علي بن الحسن): العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح: محمد بسيوني عسل، دار صادر - بيروت، د.ط - د.ت، ج١/ ص٥٨- ٦١؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٠١، ٣٠٣- ٣٠٦.

على الاضطرابات التي تلت مقتل أبيه، مما أتاح للإمام أحمد بن الحسين (الملقب بالمهدي لدين الله) فرصة مد نفوذه وسيطرته على المناطق التابعة للسلطان المظفر، وسانده في البداية الأشراف الحمزات والأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول نائب السلطان المظفر على صنعاء، فتمكن من السيطرة على كثير من المناطق التي سيطر عليها الإمام عبدالله بن حمزة من قبل، وقد تمكن السلطان المظفر من فض ذلك التحالف باستمالة الأمير أسد الدين إلى صفه وإرضائه، وبذل الأموال للأشراف الحمزات الذين انقلبوا على الإمام المهدي أحمد بن الحسين وشنوا حربًا عليه، إلا أنه استمر في حربه ضد بني رسول ومن والاهم، وكانت الحرب بينهم سجالاً، تخللتها معاهدات للصلح أفاد منها الجانبان(١).

وفي عام (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) تفاقم الخلاف بين الإمام المهدي أحمد بن الحسين وبعض مؤيديه، واندلعت بسبب ذلك حرب بين الزيدية فانضم الأشراف الحمزات إلى معارضي الإمام، ودَعَمَهم السلطان المظفر بالمال والعتاد حتى قتل الإمام المهدي سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) بعد أن انفض عنه رجاله(٢).

بعد مقتل الإمام المهدي أحس الأمير داود بن الإمام المنصور- بعد فوات الأوان - بخطورة السلطان المظفر على نفوذ الأشراف الحمزات، فحاول التصدي له عبر دعم بعض من دعا لنفسه من الزيدية، إلا أن سياسته المتقلبة كانت سببًا في إفشال كل محاولة جادة في هذا الشأن، فقد دعا

(١) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص٨٧- ٩١؛ الخزرجي: العسجد، ص ٢٠٣- ٢٠٧، ٢١١- ٢١٧، ٢٢٤.

(٢) ابن عبدالمجيد: المصدر نفسه، ص٩١؛ الخزرجي: العقود، ج١/ ص١٢٤؛ الواسعي: فرجة الهموم، ص٢٠٣.

لنفسه الشريف الحسن بن وهاس في حياة الإمام المهدي، ولكن الأشراف الحمزات انقلبوا ضده رغم اعترافه بمناطق نفوذهم، فأسر وحبس عندهم ليظهروا ولاءهم للسلطان المظفر[١].

وفي سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) دعا يحيى بن محمد بن أحمد المعروف بالسراجي لنفسه بالإمامة، ولكنه وقع بيد نائب المظفر على صنعاء الذي سمل عينيه[٢]، كما قام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين داعيًا لنفسه عام (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م)، ولكنه لم يتمكن من تحقيق شيء يذكر بسبب تخاذل بقية الأشراف عن نصرته إلى أن توفي سنة (٦٧٠هـ/ ١٢٧٢م)[٣]، فخلفه ابن أخيه الإمام المهدي لدين الله إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين، الذي قامت بينه وبين السلطان المظفر حروب انتهت بأسره سنة (٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م) وحبسه في تعز حتى توفي سنة (٦٨٣هـ/ ١٢٨٥م)[٤]، فقام بعده سنة (٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م) الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى بن المرتضى بن المطهر بن القاسم، وسانده الزيدية كافة ما عدا الأشراف الحمزات بزعامة الأمير داود بن المنصور الذين عقدوا صلحًا مع السلطان المظفر، على الرغم من أنهم هم من دعوا الإمام المطهر بن يحيى إلى الخروج والدعوة لنفسه، وقد شهدت مدة إمامته حروبًا طاحنة ضد السلطان

(١) الخزرجي: العسجد، ص٢٣٢- ٢٣٥؛ العقود، ج١/ ص١٣٦-١٣٧؛ الكبسي: اللطائف، ص١٤٠.
(٢) الخزرجي: العسجد، ص٢٣٩؛ الكبسي: المصدر نفسه، ص١٤٠- ١٤١، ٢٠٣.
(٣) يحي بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٤٥٦؛ الواسعي: المصدر السابق، ص٢٠٣.
(٤) الخزرجي: العقود، ج١/ ص١٨٠، ١٨٣- ١٨٥؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٢٨.

المظفر وأبنائه من بعده حتى وفاته سنة (٦٩٧هـ/ ١٢٩٩م)[١]، وقد خلفه ولده الإمام المهدي لدين الله محمد بن المطهر الذي واصل مسيرة والده حتى توفي بذي مرمر سنة (٧٢٨هـ/ ١٣٣٠م)[٢].

وهكذا استمرت الإمامة الزيدية في اليمن تكافح في سبيل إقامة دولة لهم طوال القرنين السادس والسابع الهجريين، ولكن نظرًا لعدم توحد جهودهم فضلا عن شدة بأس خصومهم اضطروا إلى الانكفاء على أنفسهم في مناطق نفوذهم التي كانت تتوسع وتنكمش بين الحين والآخر.

٢- الإسماعيلية:

كان للدعوة الإسماعيلية في اليمن حضور قوي منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حين تمكن دعاتهم الأوائل من التأثير في كثير من الناس واستمالتهم، وكادوا ينجحون في تكوين قاعدة قوية للإسماعيلية في اليمن لولا تطرف علي بن الفضل وغلوه الذي ظهرفي سياسته ودعوته، مما أتاح الفرصة لتحالف (الزيديين - اليعفريين - الزياديين) للانقضاض عليه والإجهاز على دولته[٣].

---

(١) الخزرجي: االعسجد، ص٢٥١، ٢٨٦؛ يحي بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٤٧٩؛ الكبسي: اللطائف، ص١٤٤- ١٤٥.

(٢) الكبسي: اللطائف، ص ١٤٨-١٥٠؛ الواسعي: فرجة الهموم، ص٢٠٥.

(٣) تمكن علي بن الفضل الخنفري (القرمطي) أحد أبرز دعاة الإسماعيلية في اليمن من إقامة دولة الإسماعيلية الأولى في اليمن سنة (٢٩٩هـ/ ٩٠٢م)، واجتاحت قواته صنعاء وزبيد، واتخذ من المذيخرة عاصمة له، وقد أظهر من التطرف والغلو في مذهبهم أشياء سببت حرجًا للفاطميين أنفسهم مما تسبب في انفضاض كثير من الناس عنه، وتمكنت القوى المتحالفة ضده من اغتياله سنة (٣٠٣هـ/ ٩١٥هـ)، ومن ثم إسقاط دولته سنة (٣٠٤هـ/ ٩١٦م)؛ انظر: ابن أبي القبائل (أبو عبدالله محمد بن =

ومنذ ذلك الحين اتخذ دعاة الإسماعيلية في اليمن أسلوب التقية والدعوة السرية، منتظرين توفر الظروف المناسبة ليبدؤوا تحركهم.

أ- الدولة الصليحية (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م - ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م)

مع مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تولى أمر الدعوة في اليمن علي بن محمد الصليحي، الذي وجد أن الظروف السياسية في اليمن قد صارت مواتية ليعمل على نقل الدعوة الفاطمية في اليمن من طور السر إلى طور العلن، وفي غضون بضع سنوات تمكن من إقامة الدولة الصليحية بعد حروب دموية خاضها ضد خصومه على الجبهات كافة، وحصل على تفويض المستنصر الفاطمي بحكم اليمن وما يتبعها[١]، واستمرت الدولة الصليحية مسيطرة على معظم أجزاء اليمن، بل امتد سلطانها إلى الحجاز[٢]، إلا أنه بعد وفاة المكرَّم أحمد بن علي الصليحي سنة (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) واجهت الدولة الصليحية معضلة كبرى وهي عدم وجود رجل يتولى الحكم من ذرية علي بن محمد الصليحي، ولذلك قامت زوج المكرم السيدة بنت أحمد بتولي إدارة شؤون الدولة خلال مرض زوجها ومن بعده وصية على أبنائه - الذين توفوا فيما بعد صغارًا - إلى

= مالك): كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تح: محمد بن علي الاكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، ط١- ١٩٩٤م، ص ٩٤- ١١٥؛ عمارة: المفيد، ص٥٩- ٦٠؛ الشجاع: تاريخ اليمن في الإسلام، ص١٦٤- ١٧٣.

(١) ابن أبي القبائل: كشف أسرار الباطنية، ص١١٦- ١٢٥؛ الجندي (أبو عبدالله محمد بن يوسف بن يعقوب): السلوك في طبقات العلماء والملوك، تح: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد - صنعاء، ط٢- ١٩٩٥م، ج٢/ ص٤٨٥-٤٨٦.

(٢) الجندي: المصدر نفسه، ج٢/ ص٤٨٥- ٤٨٧؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٥٤- ٥٥؛ الخزرجي: العسجد، ص٥٦-٥٨.

وفاتها سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)[١].

وقد استطاعت هذه السيدة بما امتازت به من قوة الشخصية ورجاحة العقل وحسن التدبير، أن تحفظ للصليحيين ملكهم، مستعينة بعدد من الرجال لأجل إدارة الدولة والذود عنها، من أمثال: الأمير أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي الذي خاض عددًا من المعارك ضد النجاحيين في تهامة حتى توفي سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م)[٢]، وأما ابنه شمس المعالي علي بن سبأ فقد حاول أن يحل محل أبيه إلا أن مدبر دولة السيدة المفضل بن أبي البركات بن الوليد الحميري دس عليه من قتله بالسم سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م)، وقد تمكن المفضل من ضبط شؤون الدولة وإعادة سيطرتها على بني زريع في عدن الذين قطعوا الخراج عن السيدة، فقاد حملة ضدهم حتى اتفق الجانبان على أن يؤدي بنو زريع لها نصف ما كانوا يؤدونه[٣].

كما أنه استغل الصراع الذي دب بين أولاد الفاتك بن جياش في زبيد، فانضم إلى جانب المنصور بن فاتك في صراعه ضد أعمامه، وقاد جيشه إلى زبيد وقد عقد العزم على الغدر به بعد القضاء على خصومه، إلا أن ثورة قادها العلماء وتمكنوا خلالها من الاستيلاء على حصن التعكر جعلته يترك زبيد مسرعًا، حيث ضرب الحصار على الثوار، ولكنه انهار أمام ضياع هيبته

(١) عمارة: المفيد، ص١١٣- ١١٤، ١٤٧؛ ابن فيض الله (حسين بن فيض الله الهمداني): الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤م، ص١٥٦.

(٢) الجندي: المصدر السابق، ج٢/ ص٤٩٢؛ الخزرجي: العسجد، ص٦٥، ٦٧؛ ابن فيض الله: المرجع نفسه، ص١٦٣.

(٣) الجندي: المصدر نفسه، ج٢/ ص٤٩٣؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢١٨.

فتجرع سمًا في فص خاتمه ومات سنة (٥٠٤هـ/ ١١٠٩م)[١].

بعد موت المفضل أقامت السيدة مكانه ابن عمه الأمير أسعد بن أبي الفتوح، فقام بواجبه أحسن قيام إلى أن غدر به رجلان من أصحابه فقتلاه سنة (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)[٢]، وكانت السيدة قد أرسلت إلى القاهرة تطلب منهم إرسال من يرونه مناسبًا ليكون مستشارًا لها في أمور الحرب والدعوة، فأرسلوا إليها في سنة (٥١٣هـ/ ١١٢٠م) الأمير الموفق علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة بصحبة عشرين فارسًا إلى اليمن، فأقام معها في ذي جبلة إلى أن قتل الأمير أسعد، فقدمت ابن نجيب الدولة وجعلته مدبر مملكتها، وكانت ترمي من وراء ذلك إلى اكتساب المزيد من الدعم من الفاطميين[٣].

قاد ابن نجيب الدولة في سنة (٥١٨هـ/ ١١٢٤م) هجومًا على النجاحيين في زبيد، إلا أنه هزم هزيمة نكراء، ومن جهة أخرى ساءت علاقة ابن نجيب الدولة بالسيدة، حيث حاول أن يحجر عليها، إلا أنها حرضت القبائل على محاصرته في الجند حتى جعلته يعود إلى طاعتها، الأمر الذي لم يرض خصومه، حيث عملوا على الدس عليه عند الخليفة الآمر بتهمة الدعوة للنزارية[٤]، فأرسل إليه أميرًا برفقة مائة فارس قبضوا

(١) عمارة: المفيد، ص١٢٨- ١٢٩؛ ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص٦١.
(٢) الجندي: المصدر السابق، ج٢/ ص٤٩٨؛ الكبسي: اللطائف، ص٨٣.
(٣) الجندي: السلوك، ج٢/ ص٤٩٨؛ الخزرجي: العسجد، ص٦٨-٦٩.
(٤) النزارية: نسبة إلى نزار بن المستنصر الفاطمي الذي قتله الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وجعل أخاه المستعلي خليفةً بدلاً منه، الأمر الذي أحدث شرخًا خطيرًا في الدعوة الفاطمية، حيث انحازت طائفة وعلى رأسها الحسن بن الصباح إلى نزار ودعوا له إمامًا مستورًا، وتطورت المعارضة إلى العمل المسلح باغتيال الآمر بأحكام الله، مما جعل الخلفاء الفاطميين يتعقبون النزارية ودعاتها في كل مكان؛ انظر: العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص٣٠٦؛ ابن فيض الله: الصليحيون، ص١٧٢-١٧٣.

عليه وأغرقوه عند باب المندب رغم المواثيق التي أعطوها للسيدة وذلك في سنة (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)[١]، بعد مقتل الآمر بأحكام الله حدث تغير كبير في علاقة الصليحيين بالفاطميين، حيث آلت الخلافة إلى الحافظ لدين الله (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م - ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) على الرغم من أن زوجة الآمر كانت قد أنجبت له طفلاً اسماه الطيب يعد في المذهب الاسماعيلي هو الوريث الشرعي للخلافة، فلم تعترف السيدة بخلافة الحافظ، بل وضعت كل إمكاناتها في سبيل نصرة الإمام المستور الطيب[٢].

أخذت الدولة الصليحية تسير نحو التفكك في ظل غياب رجال حازمين تستعين بهم السيدة في تدبير ملكها، حيث صار ولاة الأقاليم (السلاطين) يعملون على الانفصال والاستقلال الفعلي عن الدولة الصليحية، وبوفاة السيدة سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م) انتقل ما كان تحت يدها من ممتلكات الصليحيين من مدن وحصون إلى المنصور بن المفضل بن أبي البركات، فلما كبر وضعف مال إلى الدعة والسكون، فباع إلى الداعي محمد بن سبأ الزريعي أكثر من ٢٨معقلاً مابين حصن ومدينة منها إب وذي جبلة بمائة ألف دينار سنة (٥٤٦هـ/ ١١٥١م)، وخلفه ابنه أحمد الذي قام مقامه إلى سنة (٥٥٨هـ/ ١١٦٣م)، فباع إلى بني مهدي ما بقي من الحصون[٣].

---

(١) الجندي: المصدر السابق، ج٢/ ص٤٩٩؛ ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص٦٢.

(٢) السروري (محمد عبده): الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤م، ص١٦٣- ١٦٤؛ ابن فيض الله: المرجع السابق، ص١٩٢-١٩٣.

(٣) عمارة: المفيد، ص١٥٠- ١٥١؛ الخزرجي: العسجد، ص٧١؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٠٢.

ومع تدهور أوضاع الدولة الصليحية قامت في المقابل قوتان رئيستان وقع عليهما عبء حماية الممتلكات الإسماعيلية في اليمن هما: بنو حاتم و بنو زريع الهمدانيون؛ استقرت الأولى في صنعاء وما يتبعها، والثانية في عدن ونواحيها وإليها انتقل أمر الدعوة الفاطمية الحافظية بعد انشقاق الصليحيين بدعوتهم للإمام المستور الطيب بن الآمر بأحكام الله.

ب- دولة بني حاتم (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م - ٥٨٦هـ/ ١١٨٩م)

بعد وفاة الداعي سبأ بن أحمد الصليحي تغلب على صنعاء وأعمالها السلطان حاتم بن الغشم المغلسي الهمداني، الذي تمتع بصفات قيادية عالية (ت٥٠٢ هـ/ ١١٠٨م)، فخلفه ابنه عبدالله الذي قتل مسمومًا بعد سنتين، فولي الأمر بعده أخوه معن الذي لم يكن بمستوى أبيه وأخيه في إدارة البلاد، فحصلت اضطرابات جعلت كبار شيوخ همدان وبمشورة قاضيها أحمد بن عمران يعزلون معنًا في سنة (٥٠٥هـ/ ١١١١م) ويولون هشامًا وحماسًا ابني القبيب، وحوصر معن في صنعاء حتى خرج بأمان القاضي إلى حصن براش[١].

استقام أمر همدان بتولي أبناء القبيب الإمارة، إلا أن الخلافات عادت من جديد بين خلفائهم، فلما كانت سنة (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م) اجتمعت همدان على تولية أمرها القاضي حاتم بن أحمد بن عمران بن المفضل اليامي الهمداني، فتولى الأمر في كفاءة وحزم[٢]، وفي أيامه تزايد نفوذ الأشراف

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٦٤؛ الخزرجي: العسجد، ص٧١- ٧٣؛ الكبسي: اللطائف، ص٨٢-٨٣.

(٢) ابن عبدالمجيد: المصدر نفسه، ص٦٥؛ الكبسي: المصدر نفسه، ص٨٣- ٨٤، ٨٦.

الهادويين بظهور الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، الذي أخذ نفوذه في التوسع حتى اصطدم بالسلطان حاتم فهزم السلطان ودخل الإمام صنعاء، إلا أن تقلب ولاء القبائل جعل كفة السلطان حاتم ترجح من جديد بعد بذله الأموال بسخاء، فاسترد صنعاء وعددًا من الحصون، ثم توفي سنة (٥٥٦هـ/ ١١٦١م)[١]، فخلفه ابنه علي بن حاتم الذي واصل الحرب ضد الأشراف؛ إلا أنه غير سياسته عندما عمل على فك أسر الإمام المتوكل، بل إنه وقف معه في حربه ضد خصومه، كذلك انضم إلى الحلف الذي دعا إليه بنو زريع ضد عبد النبي بن علي بن مهدي والذي تمكن من ردعه عما بقي من ممتلكات الإسماعيلية[٢].

استمر بنو حاتم في رئاستهم همدان رغم محاولات التمرد عليهم في صنعاء وغيرها، حتى قدم الأيوبيون إلى اليمن، فواجهوا مشقة في حرب بني حاتم وإخضاع حصونهم المنيعة، فاضطر الجانبان إلى إبرام بعض المعاهدات التي تحدد العلاقة بين الجانبين، إلى أن تمكن طغتكين بن أيوب - بعد جهد كبير- من إبرام معاهدة مع السلطان علي بن حاتم تنص على حفظ مكانتهم ونفوذهم في المنطقة من دون أن يكون لهم أي سلطان سياسي، بل تكون السيادة للأيوبيين، وكانت هذه المعاهدة هي الأساس الذي بنيت عليه علاقة الأمراء من بني حاتم - في المرحلة التالية - مع القوى الرئيسة في اليمن، حيث عملوا دومًا على التوسط بالصلح بين

(١) الخزرجي: العسجد، ص٧٤- ٨٠؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٠٥- ٢١٢.
(٢) ابن عبدالمجيد: المصدرالسابق، ص٦٥؛ الخزرجي: العسجد، ص٨٠- ٨٣، ١٣٨- ١٤١.

الأيوبيين والرسوليين من بعدهم، وبين الزيدية[١].

ج- دولة بني زريع (٥٣٢هـ/ ١٠٧٨م - ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)

بعدما تمكن علي بن محمد الصليحى من السيطرة على مدينة عدن التي كانت تحت حكم بني معن تركهم عليها مقابل خراج سنوي معلوم، ولكن بقتل الصليحي قطع بنو معن الخراج المستوجب عليهم، فحاربهم المكرم أحمد بن علي الصليحي حتى طردهم من عدن، وأقام مكانهم العباس ومسعودًا ابني المكرم الهمداني، وكانت له سابقة في نصرة الصليحي، وقسمت المدينة بينهما على أن يتقاسما دفع الخراج المحدد[٢].

ظل بنو المكرم موالين للصليحيين بالمال والجند، فشاركوا في حملة المفضل على زبيد التي قتل فيها زريع بن العباس وعمه مسعود، ولكن مع تدهور أوضاع الدولة الصليحية بعد وفاة المكرم، أخذ بنو المكرم يعملون تدريجيًا على الاستقلال عن الصليحيين، فحاربهم المفضل حتى اتفق الجانبان على دفع نصف الخراج السابق، كما حاربهم أسعد بن أبي الفتوح فيما بعد وصالحهم على أن يدفعوا الربع[٣].

وأما من ناحية أولاد زريع ومسعود فلم يسيروا بروح التعاون نفسه الذي سار عليه آباؤهم، إذ سرعان ما نشبت حرب أهلية بين علي بن أبي الغارات

---

(١) ابن حاتم (بدر الدين محمد بن حاتم اليامي): السمط الغالي في أخبار الملوك من الغز باليمن، تح: ركس سمث، لندن، د.ط - ١٩٧٦م، ص٧٠، ٩٨، ١٠١ - ١٠٣؛ الكبسي: المصدر السابق، ص١٣٢.

(٢) عمارة: المفيد، ص١٤٠- ١٤١؛ الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥٠١.

(٣) عمارة: المصدر نفسه، ص١٤١؛ الخزرجي: العسجد، ص٨٤.

بن مسعود المتولي أمر البحر والمراكب وبين سبأ بن أبي السعود بن زريع المتولي بر عدن وما أحاط بها من حصون، وقد عرفت تلك الحرب بفتنة (الرعارع) دامت سنتين (٥٣٠هـ/ ١١٣٦م - ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)، أظهر خلالها سبأ بن أبي السعود كياسة ومرونة سياسية وعسكرية، فتمكن من كسب الرجال والتجار إلى جانبه حتى تم له النصر سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)، وصفَت له عدن وما يتبعها، وفي الوقت نفسه استطاع كسب ثقة الفاطميين ودعمهم، فأقامه الحافظ داعيًا له، بعد أن انشقت السيدة بنت أحمد الصليحي عنهم بدعوتها للطيب بن الآمر، إلا أن سبأ لم ينعم بانتصاره، إذ توفي سنة (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م) بعد انتصاره بسبعة أشهر[١].

خلف الداعي سبأ ولده الأعز علي الذي مات بمرض السل سنة (٥٣٥هـ/ ١١٣٤٠م)، فأقام وزيرهم ورجل دولتهم بلال بن جرير أخاه محمد بن سبأ الذي تزامنت توليته مع وصول سجل الحافظ بالتقليد بأمر الدعوة لأخيه، فأقام محمد بن سبأ داعيًا، الذي تمكن من توسيع رقعة دولته حتى ضم إليه معظم ممتلكات الصليحيين ومنها ذي جبلة، وتوفي سنة (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)[٢]، فتولى الداعي عمران بن محمد بن سبأ الأمر بعد أبيه، وتعرضت دولتهم إلى هجوم بني مهدي الذين انتزعوا منهم معظم المدن والحصون حتى لم يبق لبني زريع سوى عدن والدملوة[٣]، فصالح

(١) الخزرجي: المصدر السابق، ص٨٤-٨٧؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢١٨-
(٢) عمارة: المفيد، ص١٤٧- ١٥٢؛ الجندي: المصدر السابق، ج٢/ ص٥٠٢-٥٠٣.
(٣) الدملوة: قلعة منيعة من أمنع قلاع اليمن، تقع فوق قرية المنصورة من جبل الصلو (٦٠ ميلاً جنوب شرق مدينة تعز)، انظر: المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج١/ ص٦٢١.

الداعي عمران بني مهدي عنهما بخراج معلوم[١].

توفي الداعي عمران سنة (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)، وخلف ذرية صغارًا تولى الوصاية عليهم جوهر المعظمي أحد مواليه، وأما تدبير أمر الدولة فتولاه ياسر بن بلال بن جرير، فطمع عبد النبي بن علي بن مهدي في عدن، وشن هجومًا عليهم، الأمر الذي دعا ياسر إلى الاستنجاد ببني حاتم، وتمكن هذا التحالف من كسر بني مهدي، ولكن بني زريع لم ينعموا بذلك الانتصار طويلاً؛ إذ سرعان ما وصل الأيوبيون إلى اليمن، فقضوا على دولتهم سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)[٢].

٣- دولة بني نجاح (٤١٢هـ/ ١٠٢١م - ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م)

في سنة (٤١٢هـ/ ١٠٢١م) تمكن نجاح أحد عبيد بني زياد وأبرز قائد عسكري في دولتهم من تحقيق النصر على منافسيه من عبيد القصر؛ بعد حرب أهلية دامت أكثر من خمس سنوات نشبت إثر مقتل آخر أمراء بني زياد، فاستقامت أمور زبيد وتهامة وما يتبعها من معاقل وحصون تحت حكم نجاح، الذي بقي مرهوب الجانب حتى مات مسمومًا على يد جاريةٍ أهداها له علي بن محمد الصليحي سنة (٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م)[٣].

وكان قتل نجاح بداية سلسلةٍ من الصراع بين بني نجاح والصليحيين الذين سيطروا على زبيد وما يتبعها، فاشتعلت بينهم حرب الثأر التي قتل

---

(١) الجندي: المصدرالسابق، ج٢/ ص٥٠٤- ٥٠٥، ٥١٨؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٦٤، ٧٤.
(٢) عمارة: المفيد، ص١٥٣؛ الخزرجي: العسجد، ص٩٥- ٩٦، ١٣٨- ١٤١.
(٣) عمارة: المصدر نفسه، ص٩٨؛ الجندي: السلوك، ج٢/ ص٤٨٢، ٤٨٤- ٤٨٦.

فيها علي بن محمد الصليحي ثم سعيد الأحول بن نجاح، وزبيد تارة بيد الصليحيين وأخرى مع النجاحيين إلى سنة (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩) حين تمكن جياش بن نجاح (ت٤٩٨هـ/ ١١٠٥م) من استرجاع ملك أبيه[١]، وتعاقبت ذريته على حكم زبيد وما يتبعها إلى سقوط دولتهم سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م)، وهم: الفاتك بن جياش (ت٥٠٣هـ/ ١١١٠م)، وخلفه طفل له يدعى المنصور، إلا أن أعمامه نازعوه السلطان، فلجأ إلى الصليحيين الذين ساندوه حتى استرد حكمه، وكادوا ينقلبون عليه لولا انشغالهم بمشاكلهم الداخلية، وقد انفرد المنصور بالحكم إلى أن قتل مسمومًا سنة (٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، فخلفه ابنه الطفل فاتك حتى سنة (٥٣١هـ/ ١١٣٦م) حيث قتل هو الآخر مسمومًا، وانتقلت الإمارة إلى ابن عمه الفاتك بن محمد بن فاتك الذي قتله عبيده سنة (٥٣٣هـ/ ١١٥٨م)[٢].

ومن ناحية أخرى فإن تولي أمراء صغار السن مقاليد الحكم جعل نفوذ وزرائهم قويًا وسلطتهم نافذة على جميع مرافق الدولة، وقد تمكن هؤلاء الوزراء من الذود عن ملك مواليهم ضد أطماع الصليحيين الذين هاجموا زبيد سنة (٥٠٤هـ/ ١١١١م) وسنة (٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، إلا أن تعاظم نفوذ هؤلاء الوزراء جعلهم يعملون على التخلص من الأمراء الأقوياء، في حين سعى بعض الأمراء النجاحيين إلى التخلص من وزرائهم، فبدأت سلسلة من المؤامرات مات خلالها بعض أمراء بني نجاح إما مسمومين أو مقتولين،

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٥٦- ٥٨، ٦٥- ٦٦؛ ابن الديبع (عبدالرحمن بن علي): الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تح: يوسف شلحذ، مركز الدراسات والبحوث اليمني- صنعاء، د. ط - ١٩٨٣م، ص٥٦-٦٣.
(٢) عمارة: المفيد، ص١٦٦- ١٦٧؛ الجندي: المصدر السابق، ج٢/ ص٥٠٨- ٥١٥.

كما قتل كذلك بعض وزرائهم[١].

امتد سلطان النجاحيين على زبيد وتهامة، وهاجمت قواتهم بني زريع في عدن، وكانوا الوحيدين من بين القوى السياسية في اليمن آنذاك الذين أقاموا الخطبة للخلافة العباسية[٢]، إلا أن الأوضاع بدأت بالتردي إثر نشوب حروب بين الوزراء وبعض القادة العسكريين المنافسين لهم، مثل الحرب بين الوزير زريق الفاتكي والقائد مفلح الذي تنازل له زريق عن الوزارة رغم هزيمة مفلح في الحرب[٣].

كما قامت حرب بين الوزير مفلح والقائد سرور، هزم فيها مفلح وتولى إقبال الفاتكي الوزارة، فتمركز مفلح في شمال تهامة واستولى على بعض الحصون المطلة على تهامة، وأخذ يشن الغارات على سرور وإقبال إلى أن توفي سنة (٥٢٩هـ/ ١١٣٢م)[٤].

انتهت الاضطرابات بتولي القائد سرور الفاتكي الوزارة سنة (٥٣١هـ/ ١١٣٧م)، حيث تمكن من ضبط البلاد وإعادة سيادة النجاحيين على الأراضي التابعة لهم كافة، وازدهرت في أيامه الحياة العلمية في زبيد نظرًا لاهتمامه الكبير بالعلم والعلماء، وكان حزمه وصرامته في تولي الأمور وقمع الفتن سببًا في تجنيب الدولة النجاحية كثيرًا من الفتن والحروب، ومنها

(١) عمارة: المفيد، ص ١٦٨- ١٦٩؛ الجندي: السلوك، ج٢/ ص٤٩٧، ٥٠٨- ٥٠٩؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٦٧- ٦٩.
(٢) الجندي: المصدر نفسه، ج٢/ ص٤٨٥، ٥٠٨؛ ابن الديبع: الفضل المزيد، ص٦٥.
(٣) عمارة: المفيد، ص١٧٠، ١٧٢-١٧٣؛ الخزرجي: العسجد، ص١١٨.
(٤) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص٧٠- ٧١؛ ابن الديبع: الفضل المزيد، ص٧٠.

حركة علي بن مهدي التي قمعت بشدة سنة (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)، الأمر الذي جعل الأخير يرى ضرورة التخلص من سرور الفاتكي، حيث تكمن أحد رجال علي بن مهدي من اغتياله في مسجده سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م)[١].

بعد مقتل الوزير سرور دب النزاع بين رجال الدولة حول من يحل مكانه، مما أتاح لعلي بن مهدي فرصة شن حرب استنزاف على النجاحيين، الذين صاروا أضعف من أن يتصدوا له وهم مختلفون، فاستنجدوا بالإمام المتوكل - كما بينا سابقًا - ولكنه اشترط عليهم قتل أميرهم فاتك فقتلوه، وعندما عجز الإمام عن التصدي لعلي بن مهدي انسحب إلى بلاده، تاركًا النجاحيين وحدهم وقد أرهقتهم حرب الاستنزاف التي شنها عليهم علي بن مهدي، فضلا عن الحصار المضروب على زبيد، فتمكن ابن مهدي من دخول زبيد سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) منهيًا حكم بني نجاح[٢].

٤ - دولة بني مهدي (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م - ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)

شكل بنو نجاح وعبيدهم نخبة عسكرية تحكم المنطقة، مما أثار سخط كثير من العامة الذين أخذت أوضاعهم المعيشية في التردي في ظل الفتن التي شهدتها المنطقة، ومن قرية العنبرة - من قرى وادي زبيد - ظهر علي بن مهدي الرعيني الحميري من أسرة اشتغلت بطلب العلم، وقد تزود علي بن مهدي بقدر من المعارف من داخل اليمن وخارجها شكلت تصوره و فكره السياسي، فضلا عما اتصف به من صفات الزهد والتنسك وما أوتي من قوة الخطابة وفصاحة اللسان، فتمكن من جمع العديد من الأنصار من

(١) عمارة: المفيد، ص١٨٠- ١٨٥؛ ابن الديبع: الفضل المزيد، ص٧٠-٧٢.
(٢) الجندي: المصدرالسابق،ج٢/ ص ٥١٥؛الخزرجي: العسجد، ص ١٢٨.

تهامة والجبال المحيطة بها، مستفيدًا من الإمكانات المادية التي توافرت له جراء المسامحة عن خراج أراضيه ومن يلوذ به التي منحتها له أم الأمير الفاتك التي كانت تعتقد صلاحه وزهده[١].

وقد بدأ علي بن مهدي تحركه سنة (٥٣١هـ/ ١١٣٧م)، فجمع حوله الأتباع مستخدمًا الوسائل كافة، حتى ادعاء المعرفة بالغيبيات، وفي سنة (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) بدأ تحركه العسكري معتمدًا على كثرة أنصاره ومؤيديه، إلا أن حركته قمعت بشدة، فهرب إلى الجبال وبقي يتودد إلى أم الأمير الفاتك ويستعطفها حتى عفت عنه سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٧م)، وأعادت عليه المسامحة التي أجرتها رغم معارضة رجال الدولة لذلك[٢].

أعاد علي بن مهدي تجميع قواته، وحاول إيجاد حليف يدخل معه في الأمر، فزار الداعي محمد بن سبأ الزريعي في ذي جبلة، إلا أن عرضه قوبل بالرفض، فعاد إلى زبيد وقد اتخذ خطة جديدة بدأها باغتيال الوزير سرور الفاتكي وضرب وحدة النجاحيين، ثم أقام قاعدة له في أحد الحصون المطلة على تهامة، وبها يتجمع أنصاره، فأخذ يشن الغارات على القرى والحقول ثم ينسحب إلى مواقعه الحصينة، حتى عجز النجاحيون عن ردعه، وأخذت جموع الناس تنضم إليه رغبةً ورهبةً، حتى تمكن من الهجوم على زبيد[٣]، وصمد النجاحيون واستمرت المعارك بين الجانبين حتى استطاع علي بن مهدي دخول زبيد سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م)، ولكنه توفي بعدها بأقل

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٧٢؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٥٥-٢٥٦.
(٢) الخزرجي: العسجد، ص١٢٩-١٣٠؛ ابن الديبع: المصدر نفسه، ص ٢٥٦.
(٣) عمارة: المفيد، ص ١٨٦- ١٨٧؛ الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥١٧-٥١٨.

من ثلاثة أشهر[١].

تولى الأمر بعده ابنه مهدي الذي غزا ممتلكات الزريعيين حتى صالحوه بمال دفعًا لشره، وقد ارتكب العديد من الفظائع في الجَنَد، حتى قتل الناس المحتمين بجامعها وألقاهم في بئر الجامع الذي لم يسلم من الحريق، ولكنه سرعان ما توفي بمرض غريب أصابه سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م)[٢].

خلف عبد النبي أخاه مهدي، فأخذ يشن الغارات على بني زريع وبقايا الصليحيين مستوليًا على الحصون والمعاقل بالقوة أو بالمال، كما غزا المخلاف السليماني وسفك فيه كثيرًا من الدماء ومنهم كبيرهم الشريف وهاس بن غانم، عاد بعدها إلى الضغط بقوة على الزريعيين محاولاً انتزاع عدن منهم، فاستنجد بنو زريع ببني حاتم، وقد تمكن هذا الحلف من التصدي لعبد النبي وإيقاف زحفه سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)، ثم عاد عبد النبي إلى زبيد لتنظيم أموره لجولة جديدة مع الزريعيين، وفي تلك الأثناء وصلت حملة توران شاه الأيوبي إلى زبيد، حيث دارت معركة كبيرة هزم فيها عبد النبي، فانسحب إلى زبيد ليتحصن بها، إلا أن قوات توران شاه تمكنت من اقتحام المدينة وأسر عبد النبي وباقي إخوته، فسقطت بذلك دولة بني مهدي، وأما عبد النبي وإخوته فقد اختلفت الروايات التاريخية حول مصيرهم[٣].

---

(١) عمارة: المصدر السابق، ص ١٨٨؛ ؛الخزرجي: العسجد، ص ١٣٥.
(٢) الجندي: المصدر السابق، ج٢/ ص ٥١٨- ٥١٩؛ ابن الديبع: الفضل المزيد، ص٧٦.
(٣) الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥١٩ - ٥٢٠؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٦١-٢٦٥.

كانت دولة بني مهدي ذات نزعة عسكرية، قامت على أسس فكرية متطرفة أشبه بفكر غلاة الخوارج من حيث نظرتهم إلى المخالفين لهم وحكمهم فيهم، وإنشاؤهم مجتمعًا عسكريًا يضم جندهم وذويهم، من حيث إن كل ما يملكونه وينتجونه يوضع في خزائن علي بن مهدي وإسطبلاته ويذهب لصالح المجهود الحربي[١].

فضلا عن القوى التي سبق ذكرها كان هنالك عدد من الزعامات القبلية التي بسطت سلطانها على عدد من المناطق والمخاليف اليمنية مثل بني الدعام في الجوف، وقبيلة جنب التي سيطرت على ذمار، وبني راشد في حضرموت[٢]، ولكنها لم تكن تملك من النفوذ مثل ما للقوى سابقة الذكر في مناطقها.

ثانيًا: دولة بني أيوب في اليمن (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م - ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)

أسهمت عوامل عديدة سياسية وعسكرية واقتصادية في لفت أنظار نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي نحو اليمن، وعمومًا فعلى الرغم من تضارب أقوال المؤرخين حول الأسباب التي جعلت صلاح الدين - نائب نور الدين على مصر - يرسل حملة بتلك القوة إلى اليمن، فإن تداعيات الأحداث وتسارع وتيرة الصراع بين القوى السياسية في اليمن، ولا سيما إثر ظهور دولة بني مهدي ونشاطها التوسعي العدواني وتهديدها أمن المنطقة، وأهمية اليمن بوصفه عمقًا استراتيجيًا لجهود صلاح الدين في التصدي للصليبيين، فضلا عما لصلاح الدين من بعد نظر في تكريس طاقات

(١) عمارة: المفيد، ص١٩٠- ١٩١؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٧٥.
(٢) عمارة: المصدر نفسه، ص٦٦، ١٦٧؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٠٩، ٣٢٥ .

الأمة كافة في جهاد العدو الصليبي، كل تلك الاعتبارات شكلت بشكل عام الدافع الرئيس لأن يأمر صلاح الدين في سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) أخاه الأكبر توران شاه بالمسير إلى اليمن على رأس حملة عسكرية، والقضاء على القوى المتصارعة فيها وبسط الحكم الأيوبي على اليمن، فتوجه أولاً إلى مكة المشرفة ثم انطلق إلى شمال تهامة، ثم تقدم إلى زبيد، فهزم بني مهدي ودخل المدينة، ثم تقدم نحو عدن، فحاصرها حتى تمكنت قواته من اقتحامها، فملكها،وسار بعدئذ إلى صنعاء التي انسحب منها بنو حاتم إلى معاقلهم الحصينة(١).

قام توران شاه بالاستيلاء على عدد من المعاقل والحصون المهمة، ثم أقام نوابًا له في الأقاليم الخاضعة له، وهم: سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ في زبيد، وعز الدين عثمان الزنجيلي في عدن، وياقوت التعزي في تعز، ومظفر الدين قايماز في ذي جبلة. وقد استمر هؤلاء النواب يديرون المناطق التابعة للأيوبيين في اليمن حتى بعد عودة مولاهم توران شاه سنة (٥٧١هـ/ ١١٧٦م) إلى الشام، ثم وفاته في الإسكندرية سنة (٥٧٦هـ/ ١١٨١م)(٢).

بعد وفاة توران شاه نشب النزاع بين نوابه، وامتنعوا عن إرسال الأموال إلى مصر، وطمع بعضهم في الاستيلاء على مناطق الآخرين، فقامت بينهم معارك شكلت تهديدًا لحكم الأيوبيين في اليمن(٣)، فأرسل صلاح الدين مملوكه صارم الدين خطلبا على رأس حملة تمكنت من ضبط الأمور وإيقاف

(١) الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥٢٠؛ الخزرجي: العسجد، ص١٤٦- ١٥١ .
(٢) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٧٧- ٧٨؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص١٦٧- ١٦٩.
(٣) ابن حاتم: السمط، ص٢٢- ٢٣؛ الخزرجي: العسجد، ص١٥٧.

الصراع، إلا أن وفاة خطلبا المفاجئة جعلت النزاع يتجدد، فاضطر صلاح الدين إلى إرسال حملة جديدة سنة (٥٧٩هـ/ ١١٨٤م) بقيادة أخيه سيف الإسلام طغتكين الذي تمكن من التخلص من هؤلاء النواب، ودخل في سلسلة طويلة من المعارك تمكن خلالها من انتزاع معظم المعاقل الحصينة المتبقية من بقايا الصليحيين وبني زريع وبني حاتم والزيدية، واستمر يحكم اليمن إلى وفاته سنة (٥٩٣هـ/ ١١٩٨م)[١]، فتولى الأمر بعده ابنه المعز إسماعيل الذي كان شديدًا وفظًا في تعامله مع قادته وجنده على الرغم من شجاعته وكفاءته العسكرية، فانضم عدد منهم إلى صفوف الإمام المنصور عبدالله بن حمزة الذي قامت بينه وبين المعز إسماعيل معارك ضارية، خسر المعز خلالها صنعاء وعددًا من المعاقل المهمة، ولم يحاول المعز أن يحسن من سياسته بل بلغ به الغرور أن ادعى الخلافة، بل يبدو أن ذلك كان مسوغًا كافيًا لجنده بأن ينقلبوا عليه ويقتلوه سنة (٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م)[٢].

اجتمع قادة الجند وولوا الأمير الطفل الناصر أيوب بن طغتكين الذي خضع لوصاية أتابكه سيف الدين سنقر، الذي تمكن من قمع تمرد الجند وإيقاف تقدم الإمام المنصور، واستمر يحكم نيابة عن الملك الناصر أيوب إلى وفاته سنة (٦٠٨هـ/ ١٢١٠م)[٣]، حينئذ استقل الناصر أيوب بإدارة ملكه، واتخذ لنفسه وزيرًا هو غازي بن جبريل الذي وجد في الملك الشاب

(١) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص٧٨- ٧٩؛ الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥٢٤- ٥٣١.
(٢) ابن حاتم: المصدر السابق، ص٤٤- ٧١؛ با مخرمة (أبو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن أحمد): تاريخ ثغر عدن، دار التنوير - بيروت، ط٢- ١٩٨٦، ص١٩- ٢٠.
(٣) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص٨١؛ الخزرجي: العسجد، ص١٧٥- ١٧٨.

الطموح تهديدًا لنفوذه فدس له السم في صنعاء خلال حملة له سنة (٦١١هـ/ ١٢١٣م)، واستقل غازي بالملك وخطب لنفسه، إلا أن جند الناصر ثاروا لمقتل ملكهم فقتلوا غازي، وصار الأيوبيون في اليمن بدون ملك يدير أمورهم، فطمع فيهم الإمام المنصور فاستولى على صنعاء، وتقدمت قواته إلى ذمار، بل وصلت غاراته إلى لحج وضواحي عدن(١).

وفي تلك الأثناء وصل إلى اليمن أحد أمراء البيت الأيوبي هو الأمير سليمان بن شاهنشاه بن تقي الدين عمر شاهنشاه بن أيوب، وكان قد عاش متنقلاً في زي الصوفية حتى وصل إلى اليمن، فوجد الأيوبيين بدون ملك، وعرضت عليه أم الناصر أن يتزوجها ويتولى الحكم ليحفظ ملك الأيوبيين، وتم له ذلك، لكنه لم يكن مؤهلاً للحكم، فزادت الأوضاع سوءًا، وكثر الخارجون على بني أيوب، في حين شغَل ملكهم نفسه باللهو وسفاسف الأمور(٢).

وصلت إلى السلطان العادل أنباء تدهور حكم الأيوبيين في اليمن، فأمر ولده الملك الكامل نائبه على مصر أن يرسل حملة إلى اليمن بقيادة ابنه الملك المسعود بن الكامل، فتوجه إلى مكة ومنها إلى اليمن فوصلها سنة (٦١٢هـ/ ١٢١٤م)، وتمكن من عزل سليمان بن شاهنشاه بعد انضمام قادة الجند الأيوبي في اليمن إليه، ثم التفت إلى حرب الإمام المنصور، فدخل معه في معارك عنيفة استرد فيها المسعود معظم ما فقده الأيوبيون من مدن وحصون(٣).

كما توجه المسعود إلى مكة لإخضاع أشرافها سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢١م)،

(١) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص٨١-٨٢؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٨٩-
(٢) ابن حاتم: السمط، ص١٥٩- ١٦٣؛ الخزرجي: العسجد، ص١٨٠.
(٣) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٨٢-٨٣؛ الخزرجي: المصدر نفسه، ص١٨٠-١٨٣.

وعاد إلى اليمن حيث رتب أوضاعها وتجهز للمسير إلى مصر سنة (٦٢١هـ/ ١٢٢٣م)، وأناب عنه أتابك العسكر نور الدين عمر بن علي بن رسول الذي شغل بقمع التمردات في اليمن مثل حربه ضد مرغم الصوفي[١]، كما اشتبك مع الزيدية الذين هاجموا صنعاء بقيادة الأمير عز الدين بن الإمام المنصور، وقد تمكن نور الدين بمساعدة إخوته من هزيمتهم سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٥م)[٢].

وفي سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م) عاد الملك المسعود إلى اليمن متفقدًا ملكه ورجاله، ثم قام بالقبض على أبناء علي بن رسول - ما عدا نور الدين عمر الذي أبقاه نائبًا له - وأرسلهم مقيدين إلى مصر، ثم توجه المسعود بعد ذلك إلى مكة المشرفة يريد مصر إلا أن المنية عاجلته في مكة سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)[٣].

ثالثًا: الدولة الرسولية (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م - ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م)

وسنتناول فيما يلي نشأتها وأبرز الأحداث التي مرت بها وحكامها إلى نهاية القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي.

---

(١) مرغم بن منيف الصوفي الحميري، اشتهر بالزهد والتقشف والصلاح، ولم يكن ذا علم، بل كان أميًا، أخذ ينذر عشيرته ويحذرهم عاقبة الظلم والجور والخضوع للظلمة، وانتقل بدعوته إلى قرية (سحمر) من جبل بني مسلم في يحصب العلو، فناصروه وأيدوه، حيث أوهمهم أنه داع لإمام حق، فالتف حوله كثير من الناس، فشكل خطرًا على نفوذ الأيوبيين في اليمن، فخرج إليه نور الدين، فهزمه مرغم، وقد أدت سياسة الأخير الدموية وانكشاف سوء سريرته إلى انفضاض الناس عنه، وانتهى به الأمر هاربًا من بلد إلى آخر حتى توفي بوصاب؛ انظر: الخزرجي، العسجد، ص١٨١- ١٨٢.

(٢) ابن حاتم: المصدر السابق، ص١٧٨- ١٨٠؛ الخزرجي: العسجد، ص١٨٣- ١٨٥؛ الكبسي: اللطائف، ص١٢٥.

(٣) الخزرجي: المصدر نفسه، ص١٨٨- ١٨٩؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٩٨.

ينسب عدد من المؤرخين - أبرزهم الخزرجي - بني رسول إلى جبلة بن الأيهم الغساني[١]، وقد قدموا إلى اليمن صحبة الملك سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، وكانوا يمتازون بالنباهة والبسالة والشجاعة وحسن التدبير، مما زاد من حظوتهم عند ملوك بني أيوب في اليمن، إلا أن بروزهم الحقيقي كان من خلال مساندتهم للملك المسعود خلال حملته على اليمن، حيث ساعدوه على تسلم زمام الأمور، فأكرمهم بأن أقطعهم بعض الإقطاعات، واستعملهم على بعض المناطق[٢].

وكان أقربهم إليه نور الدين عمر بن علي بن رسول (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م - ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) الذي ولاه المسعود مكة المشرفة سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢١م)، ثم استنابه عنه في اليمن في عامي (٦٢٣هـ/ ١٢٢٥م) و(٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، وقد عمل نور الدين بعد وفاة الملك المسعود على تولية أنصاره ورجاله والتخلص من المنافسين له، فعقد صلحًا مع الزيدية مستغلاً الهدنة لأجل بسط

(١) جبلة بن الأيهم: آخر ملوك الغساسنة، وهي قبيلة يمنية نزحت من اليمن وأقامت دولة لها على مشارف بلاد الشام، وتذكر المصادر قصة إسلام جبلة ثم ارتداده إلى النصرانية، وقد ذكر الخزرجي مؤرخ الدولة الرسولية أن جبلة ندم على تنصره وأنه انتقل إلى آسيا الصغرى بولده، فعاشوا بين قبائل التركمان حتى اختلط نسبهم على الناس، فمن عرفهم نسبهم إلى جبلة بن الأيهم، ومن نكرهم نسبهم إلى التركمان، وأنه ظهر من ذرية جبلة رجل يدعى محمد بن هارون عمل في بلاط العباسيين رسولاً لهم في مصر والشام، وقد عرف بلقب (رسول) لأنه بلغ من ثقة الخليفة به أن صار يحمل الرسائل الشفهية عنه، ومن ذرية رسول هذا جاء بنو رسول الذين عمل أبوهم في خدمة الأيوبيين في مصر زمن صلاح الدين، وترقى هو وأبناؤه في خدمة بني أيوب حتى صاروا من أبرز أمراء الجيش الأيوبي في اليمن. انظر: الخزرجي، العقود، ج١/ ص١٢٥؛ الحداد: التاريخ، مج٢/ ص٤٤٩- ٤٥١.

(٢) ابن حاتم: السمط، ص١٦٧، ١٩٣- ١٩٤؛ الخزرجي: العسجد، ص١٨٤- ١٨٥.

نفوذه على المناطق الخاضعة للأيوبيين كافة، وتلقب بالسلطان المنصور[١].

وكان السلطان المنصور قد أرسل إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) يطلب منه تشريفه بالنيابة عنه في السلطنة على اليمن، وقد وصلته التشريفات بالفعل سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) مما زاد من قوة موقفه أمام مطالب الأيوبيين في اليمن[٢].

شغل السلطان المنصور طوال حكمه بالحروب ضد الزيدية الذين انتزع منهم كثيرًا من المعاقل، وأرغمهم على طلب الصلح معه أكثر من مرة، فضلا عن حروبه ضد الخارجين عليه من القوى القبلية حتى تمكن من إخضاع معظم اليمن لسلطانه[٣]، وقد تميز بكفاءة سياسية وعسكرية عالية، فتوسعت علاقاته السياسية خارج اليمن، وتفاوتت بين العلاقات الودية والتوترات السياسية لا سيما مع الأيوبيين في مصر[٤].

وفي سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) وبعد عودة السلطان المنصور نور الدين عمر من صنعاء إلى الجند قُتل على يد مماليكه؛ بتدبير من أبناء أخيه بدر الدين حسن وهما أسد الدين محمد وفخر الدين أبو بكر[٥]، مما عرّض دولة بني رسول لمحنة كادت تعصف بما حققه السلطان المنصور خلال تلك السنوات،

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٨٦- ٨٧؛ الخزرجي: العقود، ج١/ ص٣٣، ٤٦-٤٧.
(٢) الخزرجي: العسجد، ص١٩٥- ١٩٦؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص١٧٦.
(٣) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٥٨- ٧٣؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٠١- ٣٠٧.
(٤) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص٨٧؛ الخزرجي: العسجد، ص٢٠٠، ٢٠١-٢٠٧؛ با مخرمة: المصدر السابق، ص١٧٦- ١٧٨.
(٥) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٨٢،٨٨؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣١٥، ٣١١.

لولا أن الأقدار هيأت لبني رسول رجلاً تصدى لتلك المحنة وهو:

السلطان المظفر يوسف بن عمر بن رسول (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م - ٦٩٤هـ/ ١٢٩٦م)

كان المظفر على خلاف مع أبيه بسبب تقديمه أبناءه من زوجته الأخيرة وهما الفائز والمفضل على الرغم من أن المظفر هو أكبر أبنائه، وكان المظفر في المهجم حينما بلغته أنباء مقتل والده فتحرك بمن سانده من العرب نحو زبيد، التي كاد أسد الدين يستولي عليها لولا استماتة شقيقه المظفر والمخلصين من رجاله في الدفاع عنها حتى قدوم المظفر، الذي كان لوصوله إلى زبيد دور في عودة المماليك إلى صفه وطلبهم العفو منه حتى قبضوا على المتآمرين تكفيرًا عن فعلتهم، وقد أتاح ذلك للسلطان المظفر الوقت الكافي ليبسط سلطانه على لحج وعدن وتعز[١].

وقد واجه السلطان المظفر عددًا من التحديات كان من أبرزها: تحكم زوجة أبيه وأبنائها بعدد من المعاقل المهمة مثل الدملوة مما شكل تهديدًا مباشرًا لوحدة الدولة، فعمل بالوسائل كافة ليستولي على تلك المعاقل؛ ليجنب الدولة خطر اندلاع حرب أهلية تستنزف قواهم، فتمكن عن طريق الحيلة من الاستيلاء على الدملوة سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)[٢].

ومن جهة الزيدية فقد حدث في سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) أي قبل مقتل السلطان المنصور بعام واحد أن أخذ هؤلاء ينظمون صفوفهم تحت راية الإمام المهدي أحمد بن الحسين، الذي شن على بني رسول حربًا عنيفة، فوصلت قواته

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٨٨-٨٩؛ الخزرجي: العقود، ج١/ ص٨٨-٩٤.
(٢) ابن عبدالمجيد: المصدر نفسه، ص٩٠؛ الخزرجي: العسجد، ص٢٢١.

إلى صنعاء وذمار، أما المظفر فقد جدّ في حرب الإمام بكل إمكاناته من مال وجند، حتى نجح في شق صفوف الزيدية، مما تسبب في قيام حرب بين الزيدية أنفسهم بدعم من السلطان المظفر انتهت بمقتل الإمام(١).

اتخذ السلطان المظفر نفس سياسة والده تجاه الحجاز والدول المجاورة، فأرسل عدة حملات للحفاظ على تبعية مكة للرسوليين، بل خرج على رأس جيشه وأسطوله سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، فأكد تبعية مكة لبني رسول وقيامهم بأمرها(٢)، ولكنه تميز عن والده بالكياسة والتعقل في علاقته بالدول المجاورة ولا سيما دولة المماليك في مصر والشام، حيث خرج بعلاقة بني رسول معهم من دور التربص والعداء إلى علاقات سياسية واقتصادية وعسكرية مذهلة، تبادل الجانبان خلالها كثيرًا من المراسلات والهدايا(٣).

كما تمكن السلطان المظفر بفضل حسن سياسته والقوة العسكرية المتوافرة لديه من توسيع نفوذ مملكته، فاستولت قواته على براقش، وتمكنت من اجتياح صعدة(٤)، وكان أكبر انتصاراته استيلاءه على ظفارالحبوضي سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م)(٥).

---

(١) الخزرجي: المصدر السابق، ص٢٢٤، ٢٣٠-٢٣١؛ ابن الديبع قرة العيون، ص٣٢١- ٣٢٤.
(٢) الخزرجي: العقود، ج١/ ص١٣٣- ١٣٥؛ ابن الديبع: المصدر نفسه، ص٣٢٢، ٣٢٧.
(٣) الخزرجي: المصدر نفسه، ج١/ ص١٦٩؛ محمد عبدالعال أحمد: بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية، د.ط - ١٩٨٠م، ص٣٧٥.
(٤) الخزرجي: العسجد، ص٢٤٠؛ الكبسي: اللطائف، ص١٤٢.
(٥) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٩٥-٩٦؛ الخزرجي: العقود، ج١/ ص٢٠٧-٢١٣.

توفي السلطان المظفر سنة (٦٩٤هـ/ ١٢٩٦م)، وخلفه على الحكم ولده السلطان الأشرف عمر، الذي تمتع بصفات قيادية عالية مكنته من التغلب على الانقلاب الذي قام به ضده أخوه المؤيد داود، حيث تمكن من هزيمته وأسره، وكان حازمًا في مواجهة الخطر الزيدي في اليمن الأعلى؛ لا سيما الإمام المطهر بن يحيى، ولم تطل المدة بالسلطان الأشرف حيث توفي سنة (٦٩٦هـ/ ١٢٩٨م)، وخلفه أخوه السلطان المؤيد الذي استمر في الحكم إلى سنة (٧٢١هـ/ ١٣٢٢م)[١].

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص٩٨- ١٢٨؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص٧٢- ٧٧، ١٨١- ١٨٣.

المبحث الثاني

اليمن وثقلها السياسي والاقتصادي في المنطقة

تمتعت اليمن بعدد من المزايا والخصائص الفريدة بفضل موقعها الجغرافي المهم وسواحلها الطويلة المطلة على البحر الأحمر وبحر العرب، فضلا عن عدد من الموانئ التي كان لها وزنها في التجارة الدولية، ومن جهة أخرى اشتهرت أرض اليمن بمواردها وثرواتها الزراعية والحيوانية والمعدنية التي بلغت شهرتها الآفاق، وقد أفاضت كتب الرحالة والجغرافيين في الحديث عن خيرات اليمن وثرواته، سواء أكانت بعض المنتجات التي تنتجها أرض اليمن، أم تلك التي تصب من مواطنها في شرق آسيا باليمن أولاً ومنها يتم إعادة تصديرها إلى الأقطار كافة، ولا ننسى توافر عدد كبير من الأيدي العاملة ذات الخبرة في اليمن مما يلقي بظلاله على جودة منتجات اليمن وتزايد الطلب عليها في أسواق المنطقة.

وسنتناول فيما يلي أبرز مظاهر أهمية اليمن السياسية والاقتصادية وانعكاساتها على الأوضاع في المنطقة:

أولاً: أهمية اليمن السياسية في المنطقة.

١- أهمية موقع اليمن وأثر ذلك في علاقتها بدول الجوار:

إن موقع اليمن الاستراتيجي في الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية، وسواحلها المطلة على البحر الأحمروبحر العرب، والخلفية الحضارية لسكان ذلك الجزء من الجزيرة العربية؛ كل ذلك أدى إلى ارتباط اليمن منذ القدم بعلاقات سياسية مع الدول ذات الأهمية السياسية

والاقتصادية في العراق ومصر وبلاد الشام.

وقد ظلت اليمن محل اهتمام القوى الأجنبية التي غزت المنطقة، حيث تعاقبت الرحلات الاستكشافية التي أرسلها الإسكندر والبطالمة من بعده إلى بحر القلزم وبحر فارس في محاولة للوصول إلى جنوب الجزيرة العربية[١]، وكان الرومان الذين خلفوا البطالمة في حكم مصر أجرأ منهم وأكثر طمعًا في السيطرة على جنوب الجزيرة العربية، فأرسلوا حملتهم بقيادة إليوس جالوس حاكم مصر الروماني، إلا أن الحملة منيت بفشل ذريع في مجاهل اليمن سنة (٢٤ ق.م) على الرغم من كبر حجمها وكثرة استعداداتها[٢].

كما أن حملات الأحباش على اليمن لم تكن لمجرد التوسع العسكري، في حين كان بإمكانهم التوسع داخل القارة الإفريقية بجهود أقل كلفة من المواجهة مع شعب متمدن مثل سكان جنوب شبه الجزيرة العربية، بل جاءت تلك الحملات انطلاقًا من إدراكهم أن اليمن هي المدخل الجنوبي للجزيرة العربية، التي مثلت ميدان تنافس بين أكبر قوتين في المنطقة الفرس والبيزنطيين - حلفاء الحبشة - اللتين وقفتا عاجزتين عن القيام بأي عمل عسكري داخل الجزيرة العربية لصعوبة اختراق الصحاري المطوقة لها من الشمال والشرق، فكانت اليمن أفضل مجال لاختراق الجزيرة العربية ونشر

(١) الشيبة (عبدالله حسن): دراسات في تاريخ اليمن القديم، مكتبة الوعي الثوري - تعز، ط١- ١٩٩٩م - ٢٠٠٠م، ص١٧- ١٨؛ فخري (أحمد): اليمن ماضيها وحاضرها، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع - صنعاء، ط٢- ١٩٨٨م، ص١١٤- ١١٥.

(٢) الجرو (أسمهان سعيد): التاريخ السياسي لجنوب الجزيرة العربية (اليمن القديم)، مؤسسة حمادة للخدمات الجامعية - إربد، د.ط - ١٩٩٦م، ص١٩٥-٢٠١؛ فخري: المرجع نفسه، ص١١٥.

النصرانية فيها، ولم يكن رد الفعل الفارسي إزاء ذلك إلا دليلاً على إدراك القوى الكبرى المتنافسة في المنطقة مدى أهمية موقع اليمن ومجالها الحيوي[١].

ولذلك فإن الإنجاز الذي حققه سيف بن ذي يزن سنة (٥٧٥م) بطرد الأحباش من اليمن - رغم حلول الفرس محلهم - لقي ترحيبًا من العرب في أرجاء الجزيرة العربية كافة، فجاءت الوفود إلى صنعاء - وعلى رأس وفد قريش عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ - مهنئةً بذلك النصر الذي حققه اليمنيون حماة المدخل الجنوبي للجزيرة العربية[٢].

وبعد ظهور الإسلام ودخول أهل اليمن في دين الله أفواجًا اكتسبت الدولة الإسلامية قوة تمكنت بها من فتح العراق وبلاد الشام ومصر وإفريقية والأندلس، مما أكسب اليمن وأهلها مكانة عاليةً في جميع الأقطار الإسلامية، نظرًا لجهودهم في الذود عن الإسلام ونشره[٣]، وقد ظل الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون يولون اليمن اهتمامًا بالغًا لإدراكهم أهمية اليمن بالنسبة للجزيرة العربية وضمان أمن الحجاز وولائه، وهو الأمر

(١) الشيبة: دراسات، ص٣٠- ٣٤؛ صادق عبده علي: الهوية السياسية والحضارية لليمن في التاريخ القديم والإسلامي، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤م، ص١٤٩- ١٥٠، ١٦٧، ١٩٢.

(٢) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تنقيح: يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١- ٢٠٠٢م، ج٢/ ص٣١٠؛ الجرو: المرجع السابق، ص٣١٥-٣١٧ .

(٣) الشجاع (عبدالرحمن عبدالواحد): تاريخ اليمن في صدر الإسلام، دار الفكر - دمشق، ط١- ١٩٨٧م، ص٢٩٩-٣٠١، ٣١٥، ٣٣٠؛ الحداد: التاريخ، مج٢/ ص٣٧- ٤٢.

الذي أدركه كذلك الخارجون على الخلافة من الخوارج والشيعة، فلجأت جموع كثيرة منهم إلى اليمن مستفيدين من بعدها عن دار الخلافة[١]، وما التهديد الذي شكله كلٌ من القيل عباد الرعيني الحميري[٢]، وطالب الحق الخارجي[٣] على الدولة الأموية وسيادتها على اليمن والحجاز إلا مثالٌ واضح على أهمية اليمن وثقلها في المنطقة.

وقد ظلت ثورات اليمن تؤرق مضجع الخلافة العباسية طوال القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين، وتستنفد كثيرًا من وقتها ومجهودها العسكري، في الوقت الذي كانت في حاجة إلى كل قواتها لمواجهة الأخطار التي تواجهها على الجبهة البيزنطية[٤].

٢- اليمن ودورها في الملاحة البحرية:

تطل اليمن على بحرين (بحر القلزم وبحر العرب)، وتمتلك شريطًا

(١) ابن كثير: البداية والنهاية: ج٨/ ص١٥٩.

(٢) القيل عباد الرعيني: ثار على الدولة الأموية في خلافة هشام بن عبدالملك، واستولى على عدد من النواحي في اليمن، إلا أنه هزم على يد والي الأمويين على اليمن يوسف بن عمر الثقفي؛ انظر: الخزرجي، العسجد، ص٢٣؛ الحداد: التاريخ، مج٢/ ص٥٤- ٥٩ .

(٣) طالب الحق اسمه عبدالله بن يحي الكندي زعيم الإباضية الخوارج في اليمن، لقب نفسه بـ(طالب الحق)، وقاد ثورة أهل حضرموت ومن انضم إليهم من أنحاء اليمن ضد الدولة الأموية عام (١٢٩هـ/ ٧٤٧م)، فاستولى على حضرموت وصنعاء ومعظم مناطق اليمن، كما استولت قواته على مكة والمدينة، وأخذت تستعد للهجوم على الشام لولا أن جيوش بني أمية باغتتها وتمكنت من القضاء على ثورته التي استمرت سنة وأربعة أشهر. انظر: ابن الديبع، قرة العيون، ص ٨٦- ٨٧.

(٤) الخزرجي: العسجد، ص٢٩- ٣٥؛ ابن الديبع: المصدر السابق، ص٩٤، ٩٩- ١١٠.

ساحليًا طويلاً (حوالي ٢٠٠٠كم)، كما توافرت في اليمن المواد الأولية اللازمة لصناعة المراكب ومستلزماتها من أخشاب وحبال وشحم وغيرها من المواد اللازمة لتلك الصناعة، فضلا عن أن هناك العشرات من الجزر اليمنية في البحر الأحمر وبحر العرب التي تمتعت بمميزات طبيعية كثيرة جعلت منها صالحة لرسو السفن الماخرة عباب تلك البحار(١).

ومن جهة أخرى برع سكان السواحل والجزر اليمنية في شؤون الملاحة والسفر عبر البحار، مستفيدين من موقع بلادهم المهم على ملتقى طرق الملاحة الجنوبية، فوصلت مراكبهم إلى بلاد الرافدين ومصر وسواحل الهند الشرقية منذ أقدم العصور(٢). وقد أبحر الحميريون في أساطيل تجارية تجوب البحار مستعينين ما لديهم من دراية بالأمور الملاحية، فتمكنوا من السيطرة على حركة الملاحة في المياه الجنوبية(٣). وفي العصر الإسلامي صارت ضرائب المراكب التجارية الواصلة من جميع الأقطار تجبى إلى أمراء بني زياد الذين بسطوا سلطانهم على سواحل اليمن الغربية خلال منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي(٤).

كما أن إطلالة اليمن المباشرة على باب المندب المدخل الجنوبي للبحر

(١) الحبيشي (حسين علي): اليمن والبحر الأحمر الموضع والموقع، دار الفكر المعاصر - بيروت، ط١- ١٩٩٢م، ص٣٠- ٣١؛ شهاب: عدن فرضة اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، ط١- ١٩٩٠م، ص٤٨- ٥٤.
(٢) شهاب: المرجع نفسه، ص١٠- ١٢؛ الحبيشي: المرجع نفسه، ص٣٨- ٣٩؛ السروري: الحياة السياسية، ص٤٨٤.
(٣) صادق: الهوية السياسية، ص٨٤؛ بافقيه (محمد عبدالقادر): تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، د.ط - ١٩٨٥، ص١٧٩- ١٨٣.
(٤) عمارة: المفيد، ص٥٣- ٥٤؛ الخزرجي: العسجد، ص٩٨- ٩٩.

الأحمر جعل من المستحيل على القوى السياسية والعسكرية في المنطقة إسقاط اليمن من حساباتها، وهذا ما اتضح جليًا من خلال تطور العلاقات اليمنية الحبشية عبر التاريخ، حيث سعى الأحباش إلى الاستفادة من مميزات السواحل اليمنية سواءً كان ذلك ببسط سيطرتهم على سواحل اليمن الغربية مستغلين الفتن الداخلية في اليمن، أو بخطب ود حكام اليمن الأقوياء الذين عرفوا كيف يجعلون من اليمن قوة مرهوبة الجانب في المنطقة[١].

وفي العصر الإسلامي شكّل دعم الفاطميين القوي لقيام الدولة الصليحية في اليمن جزءًا من مخططاتهم ضد العباسيين الذين دخلوا في صراع عنيف ضد الخلافة الفاطمية، استخدم الطرفان فيه الوسائل السياسية والعسكرية والاقتصادية كافة لأجل تقويض نفوذ الآخر في المنطقة[٢]، فتمكن الفاطميون بمساعدة حلفائهم الصليحيين من بسط نفوذهم عبر البحار وصولاً إلى عمان والهند، مما مكنهم من تطويق الخلافة العباسية وتحويل طريق التجارة الشرقية من بحر فارس إلى المحيط الهندي عبر الموانئ اليمنية - وأبرزها عدن - ومن ثم إلى مصر، الأمر الذي أدى إلى ازدهار اقتصاد الدولة الفاطمية على حساب الدولة العباسية، وعلى الرغم من ذلك فإن تحقيق ذلك التعاون والتكامل الاقتصادي بين الفاطميين والصليحيين لم يكن قويًا بما فيه الكفاية ليسيطر على التجارة الشرقية سيطرة كاملة[٣].

---

(١) عمارة: المصدر السابق، ص٦٥؛ صادق: الهوية السياسية، ص١٢٧- ١٥٠.
(٢) ابن فيض الله: الصليحيون، ص٢٢٨- ٢٢٩.
(٣) السروري: الحياة السياسية، ص٤٩٧؛ صادق عبده علي: التطور التاريخي للهوية الوطنية اليمنية، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤م، ص٧٥؛ ابن فيض الله: الصليحيون، ص٢٢٨- ٢٣١.

وكما تبين لدينا مدى أهمية اليمن بالنسبة للملاحة البحرية في المنطقة، فإن علاقة اليمن بالحجاز شكلت مظهرًا مهمًا من مظاهر الأهمية الاستراتيجية لليمن في المنطقة.

٣- اليمن والحجاز:

ظلت الحجاز مهوى أفئدة المسلمين في أرجاء الأرض ومحل اهتمام خلفاء المسلمين على مر العصور، نظرًا لأنها تضم الحرمين الشريفين رمز وحدة المسلمين واجتماعهم ومحل تفكرهم في مبدأ دعوة الإسلام وما عاشته الدعوة الإسلامية من أحداث.

ولم تكن علاقة اليمن بالحجاز مجرد تقارب جغرافي أو تواصل ثقافي أو تسلسل إداري، وإنما كانت الروابط قويةً لدرجة أن صار ارتباط الحجاز باليمن أقوى من ارتباطه بأي جزء آخر من الجزيرة العربية، حيث إن عدم توافر حواضر مستقرة في نجد وشمال الجزيرة العربية جعل الحجاز يعتمد على اليمن ظهيرًا اقتصاديًا ورافدًا ثقافيًا وحضاريًا، وأكبر دليل على ذلك أن إحدى رحلتي قريش المشهورتين قبل الإسلام كانت إلى اليمن، ومن جهة أخرى فإنه في ظل ظروف خاصة - في الحجاز واليمن على السواء - كانت الحجاز واليمن أشبه بوحدة إدارية واحدة، مثال ذلك عندما جمعت للحجاج بن يوسف ولاية الحجاز مع اليمن - إضافة للعراقين - وكذلك الأمير داود بن علي العباسي الذي أسندت إليه ولاية الحجاز واليمن، بل إنه في كثير من الأحيان كان والي اليمن يتولى ضبط الأمور بالحجاز[١].

(١) الخزرجي: العسجد، ص٢٢، ٢٧؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٨٧-٩٤، ٧٩.

وعندما بدأ الضعف يحل بكيان الدولة العباسية نتيجةً لظهور الانقسامات والكيانات المستقلة، ومنها الكيانات المستقلة في اليمن، بقي الحجاز على تبعيته للعباسيين، وذلك لعدم وجود قوة سياسية كبرى منافسة لهم إلى منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حين استولى الفاطميون على مصر وأخذوا ينازعون العباسيين السيادة على ما بقي تحت أيديهم من أقاليم كاليمن والشام والحجاز، وكانوا يعدّون حصولهم على ولاء الحجاز تتويجًا لحربهم ضد العباسيين، ولكنهم اضطروا بسبب تذبذب ولاء حلفائهم من القرامطة في شرق الجزيرة العربية واضطراب أحوالهم، فضلا عن ضعف حال دعاتهم في اليمن ولجوئهم إلى التستر والتقية أمام القوى السياسية المناوئة لهم آنذاك؛ اضطر الفاطميون إلى دخول سباق مع العباسيين للفوز بولاء الأشراف في مكة والمدينة عبر إغداق الأموال والهدايا وإرسال الطعام والمؤن، وهو ما مكن الفاطميين من الحصول على ولاء أشراف مكة وإقامة الخطبة لهم، على الرغم من أن ذلك الولاء كان مرتبطًا بحال الخزينة عند الطرفين المتنافسين(١).

وصار لزامًا على من أراد كبح جماح الحجاز أن تكون له قوة عسكرية في مكة أو قريبة منها، ولم تكن القاهرة أو بغداد مستعدة لإرسال جندها إلى مكة وتحمل تكاليف إقامتهم بشكل دائم، فكان من الطبيعي أن تتوجه الأنظار إلى اليمن التي كانت منقسمة على نفسها آنذاك بين عدد من القوى والكيانات السياسية، دان بعضها بالولاء للعباسيين مثل الزياديين (٢٠٤هـ/ ٨١٨م - ٤١٢هـ/ ١٠٢٢م) في تهامة، ثم مواليهم من بني نجاح، إلا أنهم

(١) ابن فيض الله: الصليحيون، ص٢٢١، ٢٢٨-٢٣٠؛ طقوش: تاريخ الفاطميين، ص٣٧٢- ٣٧٥.

لم يكونوا من القوة في ظل الصراع السياسي والعسكري الذي شهدته اليمن خلال تلك المرحلة بحيث يعتمد عليهم في فرض الولاء الدائم للعباسيين على أشراف مكة.

إلا أنه خلال منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تمكن علي بن محمد الصليحي أبرز دعاة الفاطميين في اليمن من إقامة دولة شملت أجزاء اليمن كافة، ونجح سنة (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) في بسط سلطانه على مكة، وأخضع أشرافها للدولة الفاطمية[١]، وهكذا وجد الفاطميون في الصليحيين ضالتهم، حيث شكلوا أكبر مركز للدعوة الفاطمية في الجزيرة العربية، ومنها يتم الإشراف على الدعوة في عمان والهند[٢]، وقد تجلى اعتماد الفاطميين على الصليحيين في ضمان ولاء أشراف مكة لهم من خلال ما عانته مصر خلال الشدة المستنصرية، حيث أرسل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله إلى الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي يأمره بإنفاذ الطعام إلى مكة التي أصابتها المجاعة بانقطاع الميرة من مصر[٣].

ويتضح لنا مما سبق مدى التأثير الذي مارسته اليمن على الحجاز نتيجة الترابط الكبير بينهما وتأثير اليمن المباشر في الأحداث في الحجاز.

ثانيًا: أهمية اليمن الاقتصادية.

حوت أرض اليمن من الثروات الطبيعية ما جعلها مصدر إثراء للكثير ممن أتيح لهم التحكم بتلك الموارد واستثمارها الاستثمارالأمثل، وقد أسهبت

(١) السروري: الحياة السياسية، ص٥٢- ٥٣ .
(٢) ابن فيض الله: المرجع السابق، ص٢٢١- ٢٢٧.
(٣) طقوش: المرجع السابق، ص٣٧٥.

المصادر في الحديث عن الثروات التي تمتعت بها اليمن عبر العصور، حتى إن مقدار ما كان يصل إلى حاضرة الخلافة العباسية من أموال اليمن زمن تبعيتها للخلافة العباسية بلغ في بعض الفترات ستمائة ألف دينار سنويًا[١]، علمًا بأن سيطرة العباسيين لم تكن شاملة كل أجزاء اليمن في تلك المرحلة التي تقسمت فيها اليمن بين عدد من القوى والكيانات سياسية، ولم يبق للعباسيين من نفوذ إلا ما تمثل فيما قدمته الدولة الزيادية من فروض الولاء والطاعة[٢]، بل إن معدل الأموال التي كانت تحصل من تهامة فقط بلغت في بعض الفترات ألف ألف دينار سنويًا، وذلك في عهد أبي الجيش إسحاق بن زياد[٣]، وكذلك في عهد الصليحيين حين بلغت الأموال المحصلة لهم من تهامة ألف ألف دينار سنويًا ومن عدن مائة ألف دينار[٤].

وفيما يأتي سنتناول بعض ما ذكرته المصادر التاريخية ولا سيما كتابات الجغرافيين والرحالة عما تحويه أرض اليمن من ثروات وأبرز عائداتها:

١- الزراعة:

شكلت الزراعة المصدر الرئيس للدخل في اليمن، وذلك لاشتغال السواد الأعظم من اليمنيين بها، كما أن الضرائب المحصلة منها بأنواعها تحت مسمى

(١) ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله): المسالك والممالك، تح: محمد محرم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١- ١٩٨٨م، ص١٢٣.
(٢) عمارة: المفيد، ص٥٥؛ الخزرجي: العسجد، ص٩٨، ١٠٤.
(٣) ابن المجاور (أبو الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني): صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى (تاريخ المستبصر)، تح: أوسكار لوفجرين، دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت، ط٢ - ١٩٨٦م، ص١٨٤.
(٤) عمارة: المفيد، ص١٠٢، ١٤١؛ ابن الديبع: الفضل المزيد، ص٥٧.

(الخراج) كانت في مجموعها تمثل المورد الرئيس لخزينة الدولة في اليمن[١].

ونظرًا لتوافر الظروف المناخية الملائمة للزراعة، وخصوبة التربة في اليمن، فضلا عن تمرُّس اليمنيين في الزراعة عبر العصور كما تدل الآثار اليمنية القديمة[٢]؛ كل ذلك أدى إلى وفرة المنتجات الزراعية اليمنية وتنوعها تنوعًا يندر أن تجود به كثير من البلدان الزراعية. وقد أبدى الجغرافيون العرب إعجابهم بالخيرات التي تنتجها أرض اليمن، فيقول إبن الفقيه الهمذاني: "... باليمن من أنواع الخصب وغرائب الثمر وطرائف الشجر ما لا ينبت في بلاد الأكاسرة والقياصرة..."[٣]. واكتسبت منتجات اليمن الزراعية أهمية بالغة بالنسبة لاقتصاد المنطقة لا سيما الحجاز الذي لم يكن يتمتع بظهير زراعي يوفر له احتياجاته من الحبوب بأنواعها.

وقد أفاض الرحالة والجغرافيون في وصف تنوع المنتجات الزراعية اليمنية، حيث زرعت الحبوب بمختلف أنواعها كالقمح والشعير، كما زرعت الذرة الصفراء والبيضاء والحمراء، والدخن[٤] والأرز في بعض مناطق اليمن[٥]، ومن المنتجات الزراعية الفواكه والخضروات مثل الحمضيات بأنواعها والتفاح والمشمش والإجاص والكمثرى والعنب

(١) السروري: الحياة السياسية، ص٥١٥- ٥١٦.
(٢) الشيبة: دراسات، ص٣٩- ٤٠، ١٠٠؛ الجرو: التاريخ السياسي، ص٩٩- ١٠٣.
(٣) ابن الفقيه الهمذاني (أبو بكر أحمد بن إبراهيم): مختصر كتاب البلدان، تح: دي جويه، ليدن - ١٨٨٤م، ص٣٤.
(٤) الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب): صفة جزيرة العرب، تح: محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمنية - صنعاء، ط٢- ١٩٨٣، ص٣١٧.
(٥) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٦٣.

والموز، كما انتشرت زراعة اللوزيات[١]، واشتهرت اليمن بزراعة النخيل ولا سيما في حضرموت وتهامة، والذي كان يشكل موردًا ضخمًا من موارد خزينة الدولة نظرًا للأرباح الهائلة التي يجنيها أربابها من النخيل ومنتجاته[٢].

كما انتشرت في كثير من المناطق اليمنية زراعة النباتات العطرية ذات الروائح الطيبة، التي استخدمت في عمل الطيب والعطور مثل الرياحين، والنرجس، والياسمين، والبنفسج، والورد، والزعفران، والحناء، والكاذي، والورس[٣]. وزرعت كذلك نباتات ذات خصائص علاجية استخدمت في صناعة العقاقير الطبية مثل دم الأخوين، والصبر، والقرض - الذي استخدم في الدباغة -، واللبان الذي اشتهرت به أرض اليمن[٤].

٢- الثروة الحيوانية (البرية والبحرية):

اهتم اليمنيون بتربية مختلف أنواع الماشية لتلبية احتياجاتهم الزراعية والحياتية، فقد اهتموا اهتمامًا بالغًا بتربية الأبقار التي اشتهرت أنواع منها كالجبلانية - نسبة إلى جبلان وهي منطقة في المرتفعات بين وادي رمع وسهام -، وكذلك تربية الأغنام والماعز[٥]، كما لقيت تربية الإبل رواجًا

(١) ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر): الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل - لندن، د.ط - ١٨٩١م، ص١١١؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣١٤.
(٢) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ٧٨-٨١، ٩١-٩٢.
(٣) الرازي (أحمد بن عبدالله بن محمد الصنعاني): تاريخ مدينة صنعاء، تح: حسين العمري، صنعاء، ط٢- ١٩٨١م، ص١٨٥، ١٩٦.
(٤) ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، ص٣٦؛ ابن المجاور: المصدرالسابق، ص٢٦٦.
(٥) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص١١٢؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٦٩، ٣١٦، ٣٢٠.

نظرًا لمنافعها المتعددة ولا سيما في مجال نقل السلع والبضائع، واشتهر كثير من أنواع الإبل مثل المهرية، والصيعرية - نسبةً لقبائل الصيعر - [١].

أما الخيل فقد كانت تتمتع بمكانة خاصة لدى اليمنيين فهي مركوب الفرسان والأمراء، وعلى الفرسان يكون الاعتماد في كسب المعارك والفوز فيها، فزاد الطلب عليها داخليًا وخارجيًا ولا سيما الهند[٢]، واشتهرت الخيول اليمنية بعراقتها حتى إنها كانت تستخدم في السباق[٣]، وقد انتشرت تربية الخيول في تهامة ولدى القبائل القاطنة في المرتفعات من صنعاء إلى صعدة إلى سهول الجوف[٤].

وهناك كثير من المنتجات الحيوانية ذات القيمة الاقتصادية في اليمن مثل العنبر الذي يستخدم في صناعة العقاقير الطبية ولا سيما في عدن التي اشتهرت بصناعة العطور في أرجاء الأرض كافة[٥]، وهناك العسل اليمني بأنواعه المتعددة، الذي لقي رواجًا داخل اليمن وخارجها لفوائده الغذائية والطبية[٦]، وأما بالنسبة للمنتجات البحرية فقد أفاد اليمنيون من الشواطئ الطويلة لبلادهم التي تزخر بطيبات البحر كافة، فعمل معظم سكان السواحل اليمنية في صيد الأسماك واستخراج زيت الحوت، فضلا عن الغوص

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج١/ ص١٠٣؛ ابن المجاور: المصدر السابق، ص٢٦٦.
(٢) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص١٤٤.
(٣) ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: د.علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٤- ١٤٠٥هـ، ج١/ ص٣٦٤.
(٤) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٢٠.
(٥) المسعودي: مروج الذهب، ج١/ ص١٠٣.
(٦) ابن المجاور: المصدر السابق، ص١٢١.

لاستخراج اللؤلؤ، حتى صارت مغاص اللؤلؤ إحدى مصادر الدخل في الدولة الزيادية[١].

٣- الصناعة والتعدين:

أفاد اليمنيون من الثروات الطبيعية التي تزخر بها بلادهم، فظهرت جماعات من الصنّاع والحرفيين اليمنيين في المجالات كافة منذ أقدم العصور، وذلك من خلال ما قدمته لنا الآثار والنقوش التي تزخر بها المتاحف وتحمل دلالة واضحة على مهارة الصانع اليمني ومدى إتقانه لعمله حتى صارت بعض الصناعات ترتبط باليمن كالعقيق اليماني. ومن أبرز الصناعات اليمنية:

صناعة الأقمشة والملابس:

عمل أهل اليمن في صناعة الملابس والأقمشة منذ عصر الدويلات اليمنية القديمة، وقد استمرت تلك الصناعة في العصور الإسلامية حتى اشتهر كثير من تلك المنتجات بجودتها وفخامتها، ولقيت سوقًا رائجة خارج اليمن، ومن أبرز تلك المنتجات: البرود والعمائم والأردية والفوط والأزر. وتفنن اليمنيون في تزيين منتجاتهم بالألوان والتطريز (الوشي)[٢].

صناعة السلاح:

في مجتمع عاش منذ أقدم عصوره في فتن وحروب داخلية وخارجية لقيت صناعة الأسلحة وتجارتها رواجًا هائلاً سواء في الأسواق المحلية أو

(١) عمارة: المفيد، ص٦٤.
(٢) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص١١٢؛ ابن المجاور: المصدر السابق، ص٢٥٣ .

الخارجية، حيث اشتهرت أنواع من الأسلحة اليمنية كالسيوف والدروع والتروس والخناجر والرماح والنصال والسكاكين[١].

التعدين:

عمل اليمنيون منذ أقدم العصور على استخراج المعادن التي تزخر بها بلادهم، وهي كثيرة متنوعة، فقد ذكر الهمداني كثيرًا من مناجم الذهب مثل جبل سرواح قرب بيحان وقفاعة في صعدة من أرض خولان[٢]، وأما الفضة فقد كثرت مناجمها في أرض بني مذحج وكذلك في منطقة ما عرف بقرية (المعدن) التي اشتهرت بوفرة إنتاجها[٣]، كما استخرج الحديد من نقم وغمدان وصعدة وعدن[٤]، وهناك معادن الشب اليماني والرصاص والمرمر والملح الصخري[٥].

ويعد العقيق أشهر المعادن المنسوبة إلى اليمن حيث ظهرت منه أنواع عديدة تختلف من حيث الجودة والإتقان، وأبرز مناطق استخراج العقيق هي

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٢٢؛ المؤلف نفسه: الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، تح: محمد بن علي الأكوع، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، ٢٠٠٤م، ج٢/ ص٣٩.

(٢) الهمداني (أبو محمد الحسن بن علي): كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، تح: كريستوفر تول، تر: يوسف محمد عبدالله، وزارة الإعلام والثقافة - صنعاء، ط٢- ١٩٨٥م، ص٢٣- ٢٦؛ ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص١٩٩.

(٣) الهمداني: الجوهرتين، ص١٢٧، ١٢٩. وقرية المعدن: قرية خاربة في بلاد نهم اشتهرت بوفرة إنتاجها من الفضة؛ انظر: المقحفي، المعجم، مج١/ ص١٥٧٤.

(٤) ابن المجاور: المصدر السابق، ص١٠٦ .

(٥) ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، ص٣٧؛ ابن المجاور: المصدر نفسه، ص١٩١.

جبال صنعاء وذمار وشهارة[١]، وهناك الجزع الذي ظهرت منه أنواع كثيرة كالفارسي والمعرق ويستخرج من سعوان ووادي عشار ومنها يستخرج البلور[٢]، وتكمن أهمية العقيق والجزع في أنهما استخدما بكثرة في تزيين الخواتم فصوصًا وتزيين الأواني والأدوات المنزلية، وتزيين مقابض السيوف والخناجر، فقد ذكر أن علي بن محمد الصليحي أرسل إلى الخليفة الفاطمي المستنصر هدية فاخرة من بينها سبعون سيفًا قوائمها من العقيق[٣].

فضلا عن ذلك، فقد أتقن أهل اليمن استخدام الحجر بأنواعه في البناء والصناعات الأخرى منذ القدم، حيث صنعت بعض الأواني والأقداح من الحجر الذي يشبه الرخام[٤]، وقامت كذلك صناعة الزجاج في ضواحي عدن مثل اللخبة[٥].

كما أن توافر تلك الأعداد الهائلة من الثروة الحيوانية أدت إلى ازدهار الصناعات الجلدية من الدباغة وعمل السروج وتزييتها، وصناعة النعال وأدم الكتابة، وجلود الفرشة والدروع[٦]، وتجليد الكتب[٧].

فضلا عن ذلك، فإن كثرة الغابات باليمن أمد أعمال البناء وصناعة السفن بكميات كبيرة من الأخشاب، التي استخدمت كذلك وقودًا للأفران

---

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٢١- ٣٢٢؛ الإكليل، ص٥٨-٥٩.
(٢) الهمداني: الإكليل، ج٨/ ص٥٩. (٣) الخزرجي: العسجد، ص٥٧.
(٤) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٢٢.
(٥) ابن المجاور: المصدرالسابق، ص١٤٨.
(٦) السروري: الحياة السياسية، ص٤٧٥-٤٧٦.
(٧) المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل - ليدن، ط٢- ١٩١٩م، ص٩٨.

التي تحتاجها الصناعات الأخرى[١].

٤- التجارة:

إن تميز موقع اليمن كما أوضحنا من قبل جعل منها أبرز محطة في المياه الجنوبية للتجارة بين الشرق والغرب، الأمر الذي أدى إلى انتعاش الحركة التجارية وازدهار الموانئ اليمنية ولا سيما ميناء عدن الذي صار أكبر موانئ الجزيرة العربية عمومًا، وأهم محطة للتجارة الشرقية القادمة من الهند والصين وغيرها من شعوب شرق آسيا[٢].

وقد أظهر اليمنيون براعة فائقة في استثمار المزايا الاقتصادية والتجارية لموقع بلادهم، فخاضوا بمراكبهم عباب المحيط الهندي طلبًا لمتاجر الهند والصين حتى وصلوا إلى سواحل الهند الغربية والجنوبية، بل إن التجار اليمنيين وصلوا إلى سواحل سرنديب (سيلان) والصين[٣]، مما يدل على اطلاع أهل اليمن على فنون الملاحة وإتقانهم إياها كي يتمكنوا من السفر عبر البحار في مواسم معينة ومسالك معروفة[٤].

ونتيجةً لذلك حقق أهل اليمن نجاحًا باهرًا في التجارة البحرية والبرية، وتوسعت بذلك صلاتهم التجارية لتشمل الشعوب كافة التي تمكنوا من التواصل معها منذ أقدم العصور؛ فقالوا: " . . .أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري، ومن دخل فرغانه القصوى والسوس الأقصى فلا بد أن

---

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٦٣.
(٢) قائد: التطور التاريخي، ص٥٤- ٥٥.
(٣) ترسيسي (عدنان): بلاد سبأ وحضارات العرب الأولى، دار الفكر المعاصر - بيروت، ط٢- ١٩٩٠م، ص٤٢-٤٣؛ السروري: الحياة السياسية، ص٤٨٤-٤٨٦.
(٤) ابن المجاور: المصدر السابق، ص١١٧؛ السروري: المرجع نفسه، ص٤٨٦.

يرى فيها بصريًا أو حميريًا . . ."[١]. وقد عثر على عدد من الآثار اليمنية القديمة في مناطق متعددة من الشرق القديم بل حتى في بعض الجزر اليونانية[٢]، وفي مصر البطلمية عثر على ناؤوس -تابوت حجري - لتاجر معيني كانت له مراكب تسافر عبر البحر الأحمر لتجلب السلع من اليمن وغيرها[٣].

وكانت المتاجر الشرقية تصب في موانئ اليمن مثل قنا (بير علي) وعدن وموزا (المخا)، ومنها تحملها القوافل التجارية إلى المحطات التجارية المهمة في الجزيرة العربية كنجران والفاو والعلا، حيث تواصل السير نحو غزة أو عبر سيناء إلى مصر[٤]، وفي الوقت نفسه كان طريق تجاري من حضرموت وظفار يسير عبر أطراف صحراء الربع الخالي ثم الساحل الشرقي للجزيرة العربية وصولاً إلى جنوب العراق، وقد استمر هذا الطريق حتى بعد الإسلام بقرون عديدة[٥].

هذا بالنسبة إلى الطريق البري، أما الطريق البحري فقد كان أقصر الطرق التجارية على الرغم من مخاطره، فضلا عن أن السفن مكنتهم من نقل قدر أكبر من السلع والبضائع والوصول بها إلى أماكن متفرقة من موانئ

(١) ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، ص٥١.
(٢) الشيبة: دراسات، ص٤٨؛ الجرو: التاريخ السياسي، ص١٨٢.
(٣) الشيبة: المرجع نفسه، ص٤٧- ٤٨؛ الجرو: المرجع نفسه، ص١٨٢.
(٤) السروري: المرجع السابق، ص٤٨٧؛ الشيبة: المرجع نفسه، ص٤٧ .
(٥) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٦٣- ٢٦٤؛ يحي بن الحسين: أنباء الزمن في تاريخ اليمن، نسخة مصورة عن المخطوط في مكتبة الدكتور عبدالرحمن الشجاع، ص١٩٧؛ المطاع (أحمد بن أحمد بن محمد): تاريخ اليمن الإسلامي من سنة ٢٠٤هـ إلى سنة ١٠٠٦هـ، تح: عبدالله محمد الحبشي: شركة دار التنوير - بيروت، ط١- ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٢٩٦.

بلاد فارس وجزر المحيط الهندي والبحر الأحمر وكذلك موانئ شرق إفريقيا ومصر[١].

وقد أدى اشتغال اليمنيين بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، فضلا عما تنتجه بلادهم من سلع ومنتجات؛ أدى ذلك إلى توسيع صلاتهم التجارية في المنطقة حتى صار " . . . للنشاط التجاري في اليمن أثر كبير في قيام دويلات عربية على تخوم الشام والعراق في عصر الجاهلية منها دولة الأنباط، والتدمريين، ومملكة المناذرة في الحيرة. . . "[٢].

ومن جهة أخرى فقد كان موقع بلاد اليمن التجاري المهم وثرواتها الهائلة وخصوبة أراضيها سببًا رئيسًا في سعي شعوب المنطقة إلى توطيد علاقاتها الاقتصادية - التجارية بالذات - باليمن، وإن تطلب ذلك استخدام القوة العسكرية وغزو بلادهم والسيطرة عليها، إذ يقول (إسترابون) إن السبب الرئيسي للحملة الرومانية على اليمن هو رغبة الإمبراطور (أغسطس أوكتافيوس) في السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وأن ما سمعه عن ثروة أهل اليمن جعلته يحدد سياسته مع العرب بالتعامل معهم بوصفهم " . . .أصدقاء أغنياء، وإما أن يتغلب على أعداء أغنياء. . . "[٣].

وهكذا فقد تمكن الحميريون بفضل مراكبهم التجارية المتنقلة بين موانئ اليمن وموانئ الهند والصين والصومال وسومطرة، وقوافلهم التي عبرت

(١) صادق: التطور التاريخي، ص٥٥- ٥٦؛ ترسيسي: بلاد سبأ، ص٤٢، ٩٢.
(٢) سالم (السيد عبدالعزيز): تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - ٢٠٠١م، ص٦.
(٣) العبادي (أحمد صالح محمد): اليمن في المصادر القديمة اليونانية والرومانية (٤٨٥ق.م - ١٠٠م)، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، ٢٠٠٤م، ص١٧٧.

الجزيرة العربية شرقًا وغربًا إلى بلاد الرافدين وفلسطين ومصر، من جني مكاسب هائلة من التجارة سواءً كانت دخلاً للدولة على هيئة المكوس والضرائب أو مكاسب تجارية، فقد ذكرت المصادر الكلاسية أن السبئيين والجرهائيين كانوا من أغنى شعوب المنطقة بسبب تحكمهم بالتجارة الشرقية، واحتكارهم تجارة المر واللبان والبخور المستخدمة في الطقوس الدينية في العصور القديمة مما عاد عليهم بمكاسب بلغت مئات الدنانير على حِمل الجمل الواحد(١).

وفي العصور الإسلامية ظلت اليمن محافظة على مكانتها الاقتصادية في مجال التجارة رغم تغير الأوضاع السياسية في المنطقة، والتطورات الاقتصادية والتجارية، فقد توسع الجغرافيون العرب في وصف الحركة التجارية في اليمن لا سيما ميناء عدن، فقد ذكر ابن خرداذبة عدن قائلا: "... بها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس البصرة وجدة والقلزم..."(٢)، أما المقدسي فيصف عدن بأنها "... دهليز الصين وفرضة اليمن، وخزانة المغرب، ومعدن التجارة..."(٣)، ويتحدث ابن المجاور عن حركة التجار والمراكب من وإلى عدن والأقطار التي تبحر إليها الأمر الذي يدل على السمعة التجارية لليمن في العصر الإسلامي(٤). ومع ظهور الدولة الفاطمية ازدهرت الحركة التجارية في البحر الأحمر ازدهارًا ملحوظًا، الأمرالذي أدى إلى ازدهار

(١) بافقيه: تاريخ اليمن، ص١٧٣.
(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٦١.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٨٥.
(٤) ابن المجاور: تايخ المستبصر، ص١٤٤.

الحركة التجارية في الموانئ اليمنية نظرًا لاهتمام الفاطميين بتجارة البحر الأحمر وحماية السفن التجارية فيه، وكذلك ظهور جماعة تجار الكارم[١] الذين كان لهم دور بارز في التجارة بين الشرق والغرب بفضل نشاطهم المتزايد في هذا الطريق البحري[٢]، وتؤيد كتابات الإدريسي وياقوت

(١) الكارم: لفظ أو اصطلاح أطلق على طائفة من التجار المشتغلين بتجارة التوابل، ثم عم ليشمل المشتغلين بالتجارة مع الشرق في العصر الإسلامي، وقد اختلف حول أصل تلك التسمية بين عدد من الآراء أبرزها:
أ - أنها مشتقة من كانم وهي منطقة في السودان الغربي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، ثم انتشر الاسم وحُرِّف إلى كارم ليشمل المشتغلين بتجارة البهار.
ب - هناك من يعتقد أن اسم كارم من لفظة "كاراريما" Kuararima، وهي لفظة أمهرية تعني "الحبهان"، وهو نوع من التوابل التي كانوا يتجرون فيها، ثم صحفت إلى كارم وأطلقت على التجار.
ج - أنها من أصل هندي، فكلمة "كارم" الهندية "Karyma" تعني الأعمال الحرة، ويقصد بها الأعمال المرتبطة بين سكان الساحل الغربي من الهند وتجار الشرق.
د - هناك من يفسرها بأنها كلمة من مقطعين "كار" و"يم" أي عمل أو حرفة البحر فتصبح "كاريم" تجارة البحر.
ومهما يكن أصل الكلمة فإن التاجر الكارمي اصطلح على أنه التاجر الذي يشتغل بالتجارة الشرقية بوجه عام والتوابل على وجه الخصوص، ويعود أول ذكر لهم إلى أيام الفاطميين الذين خصصوا قطعًا من أسطولهم في البحر الأحمر لحماية تجار الكارم، الأمر الذي يدل على المكانة الاقتصادية لتلك الطائفة التجارية في الدولة الفاطمية. لمزيد من التفاصيل عن تجار الكارم انظر: قائد حميد عثمان، تجارة الكارم.. ودور مدينة عدن في النشاط التجاري الدولي منذ عهد الزريعيين حتى نهاية حكم بني رسول (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م - ٨٥٨/ ١٤٥٤م)، مجلة اليمن، مركز البحوث والدراسات - جامعة عدن، العدد٢٣- جمادى الأولى ١٤٢٧هـ/ مايو ٢٠٠٦م، ص٤٩-٥٠ .

(٢) القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١- ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٣/ ص٥٢٠، ٥٢٤.

الحموي ما لعدن من أهمية ونشاط تجاري بالغين في القرنين السادس والسابع الهجريين[١].

وقد بلغ ازدهار التجارة اليمنية ونموها حدًّ أن صارت تشكل مصدرًا مهمًا من مصادرالدخل لدى كثير من الكيانات السياسية في اليمن، حتى ذكر عمارة أن ضرائب الأمير الزيادي أبي الجيش شملت "... مراكب الهند من الأعواد المختلفة والمسك... ضرائب العنبر على السواحل... ضرائبه على معادن اللؤلؤ وعن ضرائبه على صاحب جزيرة دهلك..."[٢].

السلع التجارية:

١- الصادرات:

صدّرت اليمن العديد من السلع ذات الأهمية في تجارة العصر الإسلامي، كان من أبرزها الأحجار الكريمة كالعقيق والجزع، والأسلحة كالسيوف والرماح والخناجر، ولقيت المنسوجات اليمنية رواجًا في الأسواق الخارجية لا سيما البرود والثياب المطرزة التي اشتهرت بها اليمن[٣]، وهناك مواد الصباغة التي كان الإقبال عليها كبيرًا في أرجاء العالم كالورس والفوة[٤].

---

(١) الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن محمد بن إدريس الحسني): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب - بيروت، ط١- ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج١/ ص٥٤؛ ياقوت (ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي): معجم البلدان، دار الفكر - بيروت، د.ط -د.ت، ج٢/ ص٨٩.

(٢) عمارة: المفيد، ص٦٤.

(٣) السروري: الحياة السياسية، ص٤٨٩.

(٤) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص١٤٠، ١٧٤-١٧٥؛ السروري: المرجع نفسه، ص٤٨٣.

وبالنسبة إلى الحيوانات فقد كانت البغال والحمير والجمال من ضمن الصادرات، أما الخيول اليمنية التي اشتهرت بأصالتها وخفتها فإن الطلب عليها كان كبيرًا لا سيما في الهند[١]. يقول المقدسي عن الصادرات اليمنية: " . . . اليمن معدن العصائب، والعقيق والأدم، والرقيق، فإلى عمان تخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى السمك المجفف والزعفران واليقم والساج، . . . ، واللؤلؤ، والديباج، والجزع واليواقيت، والأبنوس، والنارجيل، والعنبر، والاسكندروس، والصبر والحديد والرصاص والخيزران، . . . والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك. . ."[٢]، وإن المتأمل للقائمة التي ذكرها المقدسي يلاحظ أن من بين السلع المذكورة أشياء لا تنتجها اليمن بل تصلها من بلدان أخرى كالعاج وخشب الساج وغيرها[٣].

٢- الواردات:

كانت اليمن تستورد عددًا من المواد، بعضها لتلبية احتياجات السوق اليمنية كالسكر والأرز والصابون، وزيت الزيتون، والزيتون المملح ومعظمها تستوردها اليمن عبر مصر[٤]، وبعضها الآخر للمتاجرة بها مع بلدان أخرى مثل سلع الهند، فكانت اليمن تتاجر بمعظم ما تستورده من الهند من الحلي كالأساور والخرز، والغلمان، وحطب القرنفل والصندل والكافور والفلفل وأنياب الفيل، ومن الصين تستورد اليمن الحرير والكيمخت والمسك والعود

(١) ابن المجاور: المصدر السابق، ص١٤٤.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٦-٩٧.
(٣) السروري: الحياة السياسية، ص٤٩١ .
(٤) ابن المجاور: المصدر السابق، ص١٤٢.

والسروج والحديد والخزف الصيني والأبنوس[١]، ومن سرنديب وسيلان الياقوت والماس والدر والبلور[٢]، ومن جنوب شرق إفريقيا الذهب والعاج والشمع وقشر السلحفاة وقرن الكركدن وكميات من جوز الهند والرقيق والجواري[٣].

ويتضح مما سبق مدى ازدهار تجارة اليمن الخارجية والداخلية في العديد من المدن كصنعاء وزبيد وصعدة، أما عدن فقد ظلت بلا منازع أكبر ميناء في الجزيرة العربية وحلقة الوصل بين التجارة الشرقية والغربية، يقصدها التجار من الأنحاء كافة لعلمهم بأنها سوق رائجة للسلع كافة ومحطة رئيسة في الطريق إلى مصر، فضلا عن ثراء اليمن بثرواتها الطبيعية والزراعية، وإنتاجها الصناعي والحرفي، وإمكاناتها التجارية، وذلك في ظل الاستثمار الأمثل لتلك الموارد، مما أهّل اليمن لتقوم بدور مهم في الحرب الاقتصادية التي شنها صلاح الدين الأيوبي ضد الوجود الصليبي في المنطقة.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص٧١.
(٢) ابن خرداذبه: المصدر نفسه، ص٧١.
(٣) السروري: الحياة السياسية، ص٤٩٢.